## القسم الثالث

## مقالات

### البلاد العربية أمام الاستعمار الأوروبي

### نظرات عامة إلى الاستعمار الأوروبي

ـ ١ـ

### أهداف الاستعمار وأنواعه

أ- لقد اعتاد علماء الاجتماع أن يقسموا المستعمرات إلى ثلاثة أنواع أساسية:

**ـ مستعمرات الاتجار**
**ـ مستعمرات الاستغلال**
**ـ مستعمرات الاستيطان**

يبدأ المستعمرون عادة بالاستعمار التجاري : فيختارون ميناء أو موقعاً جغرافياً مهماً ، يؤسسون فيه مستعمرة صغيرة، يتخذونها مركزاً للاتجار. ومن هذا المركز ينشئون صلاتهم مع داخلية البلاد وأطرافها. وهكذا يعملون على احتكار تجارة البلاد ، من غير أن يستولوا على أقسامها الداخلية. فغايتهم من هذه المستعمرة تنحصر في ضمان " الاتجار " بأسهل الصور والأساليب.

غيرأنهم كثيراً ما لا يقفون عند هذا الحد طويلاً . بل انهم يقدمون على التغلغل في داخلية البلاد، ويستولون على جميع منابع الثروة الموجودة فيها. وهم لا يكتفون في هذا السبيل بتأسيس ما تحتاج إليه التجارة من مؤسسات. بل يتوسعون في تأسيساتهم داخل البلاد. و يستولون على كل ما يجب الاستيلاء عليه لاستغلال مرافقها المختلفة. فالغاية الأصلية من أمثال هذه المستعمرات تكون " الاستغلال ".

غيرأن بعض المستعمرين لا يكتفون بذلك أيضاً : فانهم لا يقصرون خططهم على استغلال المرافق الاقتصادية وحدها، بل يسيرون على " سياسة استيطانية " أيضاً ، جاعلين من البلاد التي يستعمرونها وطناً جديداً للمهاجرين من أبناء جلدتهم . ولا حاجة إلى القول أن هذا النوع هو أهم أنواع الاستعمار، وأشدها خطراً على أهالي البلاد تقع تحت مخالب الاستعمار.

ان أبرز الأمثلة على " مستعمرات الاتجار " هي المستعمرات التي أنشأتها الدول الأوروبية على سواحل الصين. وأما احسن الأمثلة على مستعمرات الاستغلال فهي الهند سابقاً . واما احسن النماذج لمستعمرات الاستيطان فيظهر في تاريخ امريكا، واستراليا ، حيث اتخذ المهاجرون من الانكليز وغيرهم وطناً جديداً.

وقد يتطور الاستعمار في بعض البلاد من نوع إلى آخر: فقد تطور- مثلاً- الاستعمار في الهند من شكل الاتجار إلى شكل الاستغلال. وتحول في كندا وأستراليا من الاستغلال إلى الاستيطان.

وقد ينفذ الاستعمار في بعض البلاد بنوعين مختلفين في وقت واحد: فقد أحتل الفرنسيون الجزائر مستعمرين إياها لاستغلالها، ثم أخذوا يرمون إلى سياسة الاستيطان في بعض اقسامها.

ب- ان الغايات الثلاث التي ذكرناها آنفاً هي الغايات الأساسية التي عملت عملها في إنشاء وتأسيس المستعمرات، غير أن المستعمرين أخذوا يستهدفون من وراء الاستعمار غايات أخرى لا تقل أهمية عنها.

ربما كان أهم هذه الغايات، هي الغايات الحربية. فبعض الدول تقصد من وراء استعمار بعض البلاد ايجاد " قواعد ارتكاز وحركة وتموين... لجيوشها واساطيلها وطياراتها ".

وبعض الدول لا تكتفي بذلك أيضاً ، بل تعمل على تكوين جنود من أهالي المستعمرات، لتعزيز قواتها المحاربة.

وبعضها تدفع بجنود المستعمرات خلال الحرب إلى مواطن الخطر، في الصفوف لتوفر بذلك أرواح الآلاف من جنودها الأصليين.

-٢-

**استفحال الاستعمار الأوروبي**

الاستعمار من الأمور المألوفة منذ التاريخ القديم . ولكنه اكتسب خطورة عظيمة ، في أوائل القرون الأخيرة. عقب اكتشاف امريكا وأستراليا.

واستفحل الاستعمار الأوروبي، وشمل جميع القارات في القرن التاسع عشر

ب- ان أهم الأمور التي امتاز بها القرن التاسع عشر، هي ثلاثة:

**- انتشار مبدأ القوميات.**
**- قيام الثورة الصناعية بفضل اختراع المكائن.**
**- استفحال الاستعمار الأوروبي.**

نستطيع أن نقول أن الأمر الأخير، كان من نتائج الأمرين الأولين:

ان انتشار مبدأ القوميات، لم يترك أمام الدول مجالاً للتوسع في القارة الأوروبية، فتوجهت أنظار تلك الدول إلى خارج القارة المذكورة.

كما أن اختراع المكائن زاد الانتاج الصناعي زيادة هائلة. فصارت الدول تضطر إلى البحث عن أسواق لتصريف منتجاتها من جهة، وتحتاج إلى استيراد المواد الأولية الضرورية لتغذية مصانعها من جهة أخرى. وكان الاستعمار أقصر الطرق وأضمنها لتحقيق هذين الغرضين: لأن الدولة تستطيع أن تفرض على مستعمراتها الأوضاع الاقتصادية التي تريدها، وتحتكر لنفسها جميع مواردها وأسواقها.

ولذلك، اندفعت الدول الأوروبية وراء سياسة الاستعمار اندفاعاً عنيفاً .

ج- ومما ساعد على استفحال الاستعمار:

- تفوق الأوروبيين الهائل من حيث وسائل الاخضاع ووسائط التدمير.
- المهابة التي اكتسبها الأوروبيون في نظر أهالي المستعمرات من جراء هذه القوى المادية.

- روح الخضوع والاستسلام التي استولت على نفوس هؤلاء الأهالي نتيجة للعاملين المذكورين.

وما كان يقف دون التوسع الأوروبي الاستعماري في مختلف القارات، إلا أمران:

- التنافس الذي كان يقوم بين الدول الأوروبية نفسها.
- قسوة المناخ التي كانت تجعل المعيشة في بعض المناطق والأقاليم خارج طاقة الأوروبيين البدنية.

ولكن الأحداث السياسية المتتالية حملت الأوروبيين في آخر الأمر على " الأتفاق " في أمر " اقتسام مناطق النفوذ والاستعمار "- على اساس المفاوضة والمساومة والمعاوضة- وزال بذلك العائق الأول، بصورة تدريجية.

كما أن تقدم العلوم والصناعات مكن الأوروبيين من استكمال وسائل الحياة الصحية والعيشة الهنيئة في مختلف الأقاليم . وتضاءل بذلك العائق الثاني أيضاً .

ولذلك استفحل الاستعمار وانتشر، حتى شمل مجاهل افريقيا وبلغ المناطق المتجمدة من الكرة الأرضية.

د- ان الخريطة رقم (٢) الملحقة بهذه الصحيفة تبين المستعمرات التي كانت قائمة في القارات الأربع: افريقيا، آسيا، أوقيانوسيا، وامريكا- سنة ١٩١٤، عند بدء الحرب العالمية الأولى. كما أنها تبين مساحة الدول المستعمرة، بالنسبة إلى مساحة البلاد التي تستملكها وتستعمرها.

(المربعات الكبيرة تمثل مساحة المستعمرات، والمربعات الصغيرة- السوداء- تمثل مساحة البلاد الأصلية).

ويتبين من الأرقام المدرجة بجانب المربعات وداخلها: ان مساحة بريطانيا العظمى نفسها ٣٠٤.٣٠٠ كيلومتر مربع، ولكن مساحة مستعمراتها ٣٣.٠٠٠.٠٠٠ كيلومتر مربع . وإذا حسبنا النسبة بين الرقمين، علمنا أن البريطانيين كانوا يحكمون- في ذلك التاريخ- بلاداً تبلغ مساحتها السطحية (١٠٨) أمثال بلادهم الأصلية.

ان حسابات مماثلة لذلك تبين أن مساحة المستعمرات الفرنسية كانت تبلغ (١٨) ضعفاً لمساحة فرنسا نفسها. ومساحة المستعمرات الهولندية كانت تبلغ (٢١) ضعفاً لمساحة هولندا نفسها.. الخ.

ويلاحظ من الخريطة أن القارة الافريقية، كانت أكثر القارات مرتعاً ومسرحاً للاستعمار. لأنه لم يكن بها- في ذلك التاريخ- دولة مستقلة سوى " الحبشة ".

-٣-

**اعتسافات المستعمرين**

لقد رافق الاستعمار الاوروبي ضروب من المظالم الفظيعة التي كانت كثيراً ما تصل إلى درجة " الابادة بالجملة "، بلا رحمة ولا شفقة.

وعندما احتاج المستعمرون إلى أيد عاملة لاستثمار المرافق الاقتصادية في أمريكا، راحوا يصطادون الزنوج في افريقية كما كانوا يصطادون الوحوش، و ينقلونهم بالسفن إلى امريكا كما ينقلون الأغنام، ويشغلونهم هناك، تحت ضربات السياط القاسية كما يشغلون البغال والثيران.

إن الضمير العام الأوروبي ما كان يستفظع هذه الأعمال. ولذلك ماكان المستعمرون يرون لزوماً لكتم أخبار هذه التصرفات الفظيعة.

ولكن عندما بدأ الضمير الاوروبي يستيقظ شيئاً فشيئاً ، أخذ المستعمرون يختلقون نظريات عديدة ، لإسكات الضمائر الحساسة، وتبرير الاعمال الاستعمارية.

أقدم هذه النظريات كانت التشكيك في كون هؤلاء من بني آدم : كان الباحثون يختلفون في أمر نشأة الاقوام المعلومة: هل نشأ الانسان في نقطة واحدة من الارض ، ثم انتشر منها إلى سائر الاقطار؟ أم نشأ في أقطار مختلفة؟ هل جميع الاقوام . من نوع واحد، أم هم من أنواع مختلفة؟ وبتعبيرآخر: هل الاقوام تنحدر من أصل واحد ، أم أنها تنحدر من أصول عديدة؟ عرف الرأي الاول بالـ Monogenisme (وحدة المنشأ) والرأي الثاني بالـ Polygenism (تعدد المنشأ ).

وقد استفاد دعاة الاستعمار من الرأي الثاني ، فصاروا يقولون : هؤلاء ليسوا من بني نوعنا، بل هم من نوع آخر، فلا جناح علينا اذا لم نعاملهم كما نعامل بني نوعنا.

وعندما انتهت الابحاث العلمية إلى تقرير الرأي الاول- والبرهنة على أن جميع الاقوام من نوع واحد- لجأ كتاب الاستعمار إلى نظرية أخرى ، وصاروا يقولون : " ولكن هؤلاء من الرسوس الدنيا المحرومة من قابلية التقدم، فمن حق الرسوس العليا بل من واجبها أن تسود عليها وتستخدمها لخير البشرية ".

كما أنهم صاروا يقولون : إن الرس الابيض يؤدي رسالة سامية، و يتحمل عبئاً ثقيلا.

وفي الاخير، تقدموا خطوة أخرى في سبيل تبرير الاستعمار، فقالوا " إن الاراضي ليست ملكاً لمن يسكنها، بل هي ملك للبشرية جمعاء. فاذا كانت مسكونة بشعب غير راق، يكون من حق الشعوب الراقية بل من واجبها أن تستولي عليها وتستعمرها خدمة لمصلحة البشرية العامة.

إن دعاة الاستعمار حاولوا أن يستندوا إلى أمثال هذه الآراء، لتخدير الضمير العالمي، وادامة الاستعمار الغربي.

-٤-

**انحسار الاستعمار**

ومع ذلك كله، أخذت قوى الاستعمار تضعف وتتضاءل، منذ أوائل القرن الحاضر، ولا سيما بعد الحرب العالمية الاولى، ووصلت إلى حالة النزاع والتلاشي بعد الحرب العالمية الثانية.

ولهذا التضاؤل عوامل عديدة:

أولاً- تلاشت فكرة الرسوس العليا والرسوس الدنيا- وكان الفضل الأول والاكبر في زعزعة هذا الاعتقاد، لنهضة اليابان وتقدمها السريع المعلوم.

ثانياً- الحرب العالمية الاولى أوجدت تيارات فكرية هامة :

(أ) الدعايات التي قام بها كل واحد من الطرفين المتحاربين ضد الطرف الآخر، في مختلف انحاء العالم، بما فيها المستعمرات والبلاد المعدة للاستعمار، أثرت في النفوس تأثيراً عميقاً ، وقضت على سطوة الاوروبيين المعنوية ومهابتهم .

(ب) ارغام الجيوش المكونة من اهالي المستعمرات على خوض غمار المعارك ،عدة سنوات، عوّد هؤلاء على تحمل اهوال الحرب، وأزال من قلوبهم الفزع من أزيز الرصاص ودوي المدافع.

(ج) اليقظة الفكرية والقومية التي أخذت تدب بين اهالي المستعمرات قوت فيهم روح التكاتف والتضامن، ودفعتهم إلى المقاومة السلبية المنظمة في بعض البلاد، وإلى الثورة المسلحة الدموية في بعض البلاد الاخرى.

ثالثاً- الحرب العالمية الاخيرة، قوّت ووسعت جميع العوامل المذكورة آنفاً ، وأحيت في نفوس أهالي المستعمرات " آمال التحرر "، ودفعتهم إلى العمل والتضحية في هذا السبيل.

-٥-

**قناع الانتداب**

إن سياسة الاستعمار، لم تستسلم لهذه العوامل دفعة واحدة، بل حاولت أن تقاومها وتكافحها بوسائل وصور شتى.

إن " سياسة الانتداب " كانت من أبرز الوسائل التي توسل بها الاوروبيون لستر أغراضهم الاستعمارية، ولإطالة عمر الاستعمار، على الرغم من العوامل المذكورة آنفاً .

قالوا: إننا نسلم مبدئياً بأن الشعوب يجب أن تستقل. إلا أننا نلاحظ أن هناك شعوباً متأخرة لا تستطيع أن تدير شؤونها بنفسها في حالتها الحاضرة ؛ فهي في حاجة إلى مساعدة الشعوب المتقدمة. فلنضع كل واحد من الشعوب المتأخرة تحت انتداب شعب راق، يساعده على التقدم والنهوض، إلى أن يستكمل وسائل الحكم الذاتي والاستقلال القومي .

إن سياسة الانتداب- بشكلها النظري الآنف الذكر- كانت بمثابة تطبيق مبدأ " الوصاية " المألوفة في الاحوال الشخصية المدنية، على الشؤون الدولية : كما أن القاضي لا يترك أموال القاصرين وأملاكهم بيدهم ، بل يعين وصياً عليهم ، ليدير شؤونهم إلى أن يبلغوا سن الرشد، وكذلك يجب أن تفعل " عصبة الامم ": يجب أن تعتبر بعض الشعوب " قاصرة " في الحياة الادارية والسياسية، فيجب أن تعين دولة من الدول وصية عليها، إلى حين وصولها إلى درجة من الرقي الاجتماعي، والنضوج السياسي، بمساعدة الدولة المنتدبة عليها.

(وقد صدر قرار من عصبة الامم، بوضع سوريا تحت انتداب فرنسا ، وفلسطين والعراق تحت انتداب بريطانيا).

ولكن هذه السياسة الجديدة كانت في حقيقة الامر بمثابة " قناع خداع "، قصد منها تطمين مطامح المستعمرين من وراء الستار.

لأن المبدأ الأساسي في الوصاية، هو أمانة الوصي على العمل لصالح القاصر ، وعطفه عليه وعلى مصالحه. ولكن الانتداب الآنف الذكر كان بمثابة " ترك اموال القاصر بيد مغتصبيها، مع منحهم لقب الوصي ".

لأنه ترك البلاد في أيدي المحتلين الطامعين، يحكمونها ويستغلونها بصفتهم منتدبين عليها.

ومن المعلوم أن البلاد العربية قاست الأمرين للتخلص من ربقة الانتداب، ولا تزال تقاسي الكثير من آثاره ومخلفاته.

**الاستعمار الاوروبي للبلاد العربية**

**-١-**

**قبل الحرب العالمية الأولى**

أ- إن الاستعمار الاوروبي الذي مدّ مخالبه إلى أقاصي بلاد العالم، كان من الطبيعي أن ينزع إلى بسط سيطرته على البلاد العربية أيضاً.

ولكن ذلك تأخر كثيراً بالنسبة إلى استعمار سائر البلاد.

فان الاستعمار الاوروبي لم يبدأ في ترسيخ أقدامه في قطر من الاقطار العربية الا في نهاية العقد الثالث من القرن التاسع عشر، حين احتلت، فرنسا مدينة الجزائر، سنة ١٨٣٠، وأخذت توسع نطاق احتلالها للبلاد الجزائرية. وفضلاً عن ذلك، هذه الخطوة الاولى لم تتبعها خطوات اخرى، الا بعد فترات بعيدة. فان فرنسا لم تحتل تونس وتبسط حمايتها عليها الا بعد مرور نصف قرن، كما أنها لم تقدم على احتلال مراكش الا بعد مرور ثمانية عقود من السنين، على احتلالها للجزائر.

وكذلك بريطانيا العظمى : إنها احتلت عدن سنة ١٨٣٩، ولكنها لم تقدم على احتلال مصر الا بعد مرور ثلاثة واربعين عاماً على ذلك التاريخ، كما انها لم تبسط حمايتها على الكويت الا بعد مرور ستة عقود من السنين على احتلالها عدن.

ب- وكان لسير حركات الاستعمار على هذا المنوال أسباب عديدة. ولكن اهم هذه الاسباب كان- بلا شك - " تنافس الدول العظمى وتنازعها ".

فان كل قطر من الاقطار العربية كان مطمح انظار دول عديدة. فكل دولة من الدول العظمى كانت تطمع في بعض الاقطار، وتسعى إلى تقوية نفوذها فيها، استعداداً لاستكمال الوسائل اللازمة لامتلاكها. كما أنها كانت تبذل اقصى الجهود لحيلولة دون توسع نفوذ منافسيها فيها. وطبيعي أن النتيجة التي تؤدي اليها هذه المنافسات كانت " ابقاء ما كان على ما كان " فترة طويلة من الزمان، وذلك انتظاراً لسنوح الفرص

والظروف التي تساعد على احتلال البلد، دون محاربة دولة أوروبية اخرى، أو لحصول اتفاق بين الدول المتنافسة على أساس المساومة والمعاوضة.

ولهذا السبب، نجد أن تاريخ الاستعمار الاوروبي في كل جزء من أجزاء البلاد العربية مليء بأخبار المفاوضات السياسية التي جرت بين الدول، قبل بدء الا بعده **[ انظر تفاصيل هذه الاتفاقات في : ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، ط٢ ( بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٦٠ ) ] .**

من المعلوم- مثلا- أن فرنسا عارضت احتلال بريطانيا لمصر، وظلت تعارضه ، إلى أن اتفقت معها على أساس: أن تكون هي حرة في عمل ما تشاء في المغرب . ومقابل ذلك تصبح بريطانيا حرة في عمل ما تشاء في مصر.

وألمانيا.. أعلنت بأنها ستدافع عن استقلال المغرب وستحول دون احتلال فرنسا لتلك البلاد. ولم تتزعزع عن موقفها هذا، الا بعد مفاوضات ومساومات طويلة، انتهت إلى اتفاق ينص على أن تترك فرنسا احدى مستعمراتها الأفريقية لألمانيا، ومقابل ذلك تعترف ألمانيا لفرنسا بحرية العمل في المغرب.

وايطاليا، لم تقدم على احتلال طرابلس الغرب وبني غازي، الا بعد مفاوضات ومساومات طويلة جرت بينها وبين كل من فرنسا وبريطانيا، وألمانيا، والنمسا واسبانيا.

ج- خلال السنوات التي مضت بين احتلال الجزائر ونشوب الحرب العالمية الاولى، كان الاستعمار الاوروبي قد شمل معظم البلاد العربية : ففرنسا كانت قد احتلت بلاد المغرب- من المحيط الاطلسي إلى شواطىء تونس- باستثناء منطقة الريف التي تركت لاسبانيا. وايطاليا، كانت احتلت طرابلس الغرب وبني غازي وألحقتها بمملكتها، وأما بريطانيا العظمى فكانت رسخت اركان احتلالها وحكمها في مصر والسودان، كما بسطت اجنحة حكمها وحمايتها على سواحل جنوب الجزيرة العربية والخليج العربي، من باب المندب حتى الكويت.

ولم يبق- من البلاد العربية- خارج نطاق احتلال واستعمار الدول الاوروبية سوى الولايات العربية التابعة للدولة العثمانية في آسيا.

وفضلاً عن ذلك : فإن هذه الولايات العربية نفسها غدت ميداناً لمنافسات ومساومات طويلة، انتهت إلى تحديد مناطق نفوذ كل من بريطانيا وفرنسا وألمانيا فيها . فان الاتفاقات السرية التي تم عقدها بين الدول المذكورة من ناحية، وبين كل واحدة منها والدولة العثمانية من ناحية اخرى- خلال النصف الثاني من سنة ١٩١٣ و النصف الاول من سنة ١٩١٤- أي : بين انتهاء الحروب البلقانية وبدء الحرب العالمية الأولى - كانت اقرت مناطق النفوذ في الولايات العربية كما يلي :

سوريا: القسمان الجنوبي والوسطي منها، حتى بعد ستين كيلو متراً شمال حماه، منطقة نفوذ لفرنسا؛ والقسم الشمالي منها، حتى بعد ستين كيلو متراً جنوب حلب منطقة نفوذ لألمانيا .

العراق: شط العرب والخليج منطقة نفوذ خاصة ببريطانيا، من شمال شط العرب حتى الموصل، منطقة مشتركة بين بريطانيا وألمانيا، من الموصل حتى حلب واسكندرونة منطقة خاصة بألمانيا **[ لمزيد من التنفاصيل ، انظر المصدر نفسه ، ص ٢٠١ – ٢٢٤ ] .**

**خلال الحرب العالمية الأولى**

أ- إن دخول الدولة العثمانية الحرب بجانب ألمانيا والنمسا- ضد روسيا وانكلترا وفرنسا- هيأ لهذه الدول الفرصة لتحقيق اطماعها في البلاد العثمانية بوجه عام والبلاد العربية بوجه خاص.

بدأت مفاوضات سياسية بين الدول المؤتلفة طثلاث على كيفية اقتسام ميراث الدولة العثمانية بعد انتهاء الحرب، منذ اواسط سنة ١٩١٥. وانتهت هذه المفاوضات باتفاقيتين سريتين، عقدت الاولى منهما بين الدول الثلاث في شهر آذار (مارس) سنة ١٩١٦. والثانية بين فرنسا وانكلترا،- اتماماً للاتفاقية الاولى- في شهر أيار (مايو) من السنة المذكورة.

حددت روسيا حصتها- بالاتفاقية الاولى- بالمضايق والقسطنطينية وبالولايات الشرقية، وتركت أمر التصرف في شؤون الولايات العربية إلى فرنسا وانكلترا، على أن تؤسس حكومة اسلامية مستقلة في الجزيرة العربية، وأن توضع القدس والأماكن المقدسة المجاورة لها تحت ادارة دولية، وفق الشروط التي تتقرر فيما بعد بين الدول الثلاث.

وأما فرنسا وانكلترا فقد حددت حصتهما في الاتفاقية التي عرفت باسم اتفاقية " سايكس- بيكو " بالنسبة إلى المتفاوضين " مارك سايكس " الانكليزي و " جورج بيكو " الفرنسي.

وقد شملت احكام هذه الاتفاقية كيلكيا وسوريا وفلسطين والعراق. وقسمت هذه البلاد إلى خمس مناطق، ثلاث منها ساحلية، واثنتان داخليتان.

وقد لونت المناطق الساحلية- في الخارطة الملحقة بالاتفاقية- باللون الأحمر والأزرق والأسمر. لذلك عرفت باسم المناطق الحمراء والزرقاء والسمراء. واما المنطقتان الداخليتان، فقد تركتا بلا لون، وعرفتا باسم " منطقة أ " و" منطقة ب " .

وقد شملت المنطقة الزرقاء البلاد الساحلية من بر الشام، من الناقورة إلى الاسكندرونة، وتركت لفرنسا.

وشملت المنطقة الحمراء بغداد والبصرة، وتركت لانكلترا.

وأما المنطقة السمراء، فقد انحصرت في فلسطين وجعلت منطقة دولية حيادية .

وأما منطقتا " أ " و" ب " فقد نصت الاتفاقية على أن تؤلف فيهما دولة عربية مستقلة- أو حلف دول عربية برئاسة رئيس عربي، على أن يكون مقام ممتاز لفرنسة في منطقة ألف ، ولإنكلترا في منطقة باء. فيكون لكل واحدة من هاتين الدولتين في المنطقة المذكورة حق الأولوية في المشروعات الاقتصادية والقروض المحلية، وحق الانفراد في تقديم المستشارين والموظفين الأجانب الذين تطلبهم الدولة العربية، أو حلف الدول العربية، لتنظيم شؤون تلك المنطقة.

إن الاتفاقية تبيح لفرنسا في المنطقة الزرقاء، ولإنكلترا في المنطقة الحمراء أن تنشئا نظام الحكم الذي تريانه. وتصرح بأن لهما أن تديرا هذه المنطقة ادارة مباشرة، أو أن تديراها بالواسطة بعد الاتفاق مع الدولة العربية، أو حلف الدول العربية المذكور آنفاً .

وتنص الاتفاقية على انشاء ادارة دولية في المنطقة السمراء، يعين شكلها بعد استشارة روسيا من جهة ودولة الحجاز من جهة اخرى.

وتدخل الاسكندرونة في المنطقة الفرنسية على أن يكون ميناؤها حراً لتجارة الامبراطورية البريطانية ، وتدخل حيفا في المنطقة الانكليزية على أن يكون ميناؤها حراً لتجارة فرنسا ومستعمراتها والبلاد العربية الواقعة تحت حمايتها .

ويتعهد كل من الطرفين المتعاقدين أن لا يتنازل عما له من حقوق في المنطقة المخصصة له ، وان لا يعطي تلك الحقوق لدولة أخرى – سوى للدولة العربية أو لحلف الدول العربية – من دون أخذ موافقة الطرف الآخر . كما يتعهد كل من الطرفين بألا يمتلك – وألا يسمح لدولة ثالثة بأن تمتلك – اقطاراً في ولايات الجزيرة العربية .

هذه الاتفاقية كانت سرية ، وبقيت مكتومة حتى نهاية سنة ١٩١٧ ، حيث أشاع أخبارها الروس ، بعد انهيار القيصرية وقيام البلشفية .

كانت انكلترا عقدت هذه الاتفاقية مع فرنسا في الوقت الذي كانت تفاوض اميرمكة المكرمة الشريف حسين " وتعده " بالعمل لضمان استقلال البلاد العربية.

وظلت الدول المتحالفة تعلن على الملأ بأنها لا تطمع في توسيع نطاق حكمها، وانها تحارب لأجل تحرير الشعوب المغلوبة على امرها... حتى بعد عقد هذه الاتفاقية.. ولا سيما بعد اشتراك الولايات المتحدة الامريكية في الحرب.

ب- إن دخول ايطاليا الحرب بجانب الدول المتحالفة- ضد المانيا والنمسا والدولة العثمانية- استوجب اعطاءها حصة من ميراث الدولة الاخيرة. غير أن الحصة التي تم الاتفاق عليها في هذا الشأن كانت خارج البلاد العربية، في النواحي الغربية الجنوبية من الاناضول .

إن الخارطة (رقم ٣)، تبين كيفية اقتسام أراضي الدولة العثمانية- في الاتفاقيات التي عقدت خلال الحرب العالمية. إن احكام اتفاقية سايكس بيكو، المتعلقة بالبلاد العربية، أيضاً تظهر على هذه الخارطة.

ج- واما الحركات الحربية، فقد سارت بطبيعة الحال وفق ما تقتضيه امكانيات الدول المتحالفة وخططها الاستراتيجية.

ففرنسا كانت هدفاً لهجوم ألمانيا الاساسي، فأصبحت أهم ميادين القتال. ولذلك ما كانت تستطيع أن ترسل قوى عسكرية إلى خارج بلادها، وأن تشترك اشتراكاً فعلياً في الحركات الحربية التي ستجري لاخضاع الدولة العثمانية. وروسيا أيضاً كانت عرضة لهجوم الجيوش الالمانية المباشر، فكانت في حاجة ملحة للاتصال مع حلفائها عن طريق المضائق، لتستطيع أن تلعب دوراً يؤثر في سير الحرب. ولهذه الاسباب، ترتب على بريطانيا أن تتحمل وحدها- تقريباً- أعباء الحرب في الميادين التي تتصل بالدولة العثمانية . كان عليها أولاً : أن تحكم الحصار على السواحل العثمانية ، ثم تسعى إلى فتح الدردنيل لضمان الاتصال بروسيا ، وتعمل كل ما يجب عمله لارغام تركيا على الاستسلام .

وكان رجال الجيش البريطاني رأوا منذ بداية الأمر ، أن اسهل وأسلم الطرق لارغام تركيا على الاستسلام ، هي : انزال الجيوش الى خليج الاسكندرونة لشطر أراضي الدولة المذكورة من وسطها ، غير ان فرنسا عارضت هذه الخطة معارضة شديدة ، لأنها ما كانت في حالة تسمح لها بالاشتراك في تلك الحركات الحربية ، وكانت تعتقد أن احتلال سوريا من قبل الجيوش البريطانية يضعف المكانة التي كانت اكتسبتها هي في تلك البلاد ، ويعرقل تحقيق مطامعها فيها . وبريطانيا عدلت عن تنفيذ الخطة المذكورة، مراعاة لعواطف الفرنسيين. وعندما فشلت حملة الدردنيل عاد اللورد كيتشنر إلى مشروع الاسكندرونة، وبذل جهوداً كبيرة لاقناع رجال فرنسا بذلك . غير أن هؤلاء لم يعدلوا عن معارضتهم. ولذلك اضطرت بريطانيا إلى الاكتفاء بتوجيه حملاتها العسكرية على الدولة العثمانية من أطرافها البعيدة عن قلبها : من البصرة من ناحية، ومن السويس من ناحية اخرى.

فاحتلت بريطانيا العراق- بعد حروب طويلة- بالجيوش التي نقلتها من الهند، كما احتلت فلسطين بالجيوش التي حشدتها في مصر.

ومن جهة اخرى، شجعت " شريف مكة " على العصيان وساعدته على تكوين جيش يستطيع أن يتغلب على الجيوش التركية.

فرنسا ما كانت تحبذ اقدام الانكليز على مفاوضة امير مكة. لانها كانت تشعر بأن الوعود التي ستقدم اليه كان لا بد أن تعرقل تحقيق مطامع فرنسا في سوريا. ومع ذلك ، عندما أعلن الامير الثورة، اضطرت فرنسا إلى الاعتراف بملكيته على الحجاز، وفضلا عن ذلك أرسلت بعثة عسكرية لتمثلها لديه.

ورئيس البعثة المذكورة- الجنرال بريمون- عندما اتصل برجال الثورة ولاحظ ما يجيش في صدورهم من نوازع وآمال ؛ رأى من الضروري صيانة البلاد السورية من تأثير الثورة العربية. فاقترح على حكومته أن تعمل لحصر حركات جيش الملك حسين داخل ولاية الحجاز نفسها، وعدم افساح المجال لها للتقدم نحو الشمال. والتقرب من سوريا [ **انظر التفاصيل في : ساطع الحصري، يوم ميسلون: صفحة من تاريخ العرب الحديث (بيروت: مكتبة الكشاف ومطبعتها، (١٩٤٧ )، ص ٥٧-٦١ ] .**

غير أن ساسة فرنسا وقوادها العسكريين، لاحظوا شدة اهتمام البريطانيين بالثورة العربية، فلم يجدوا- في ظروف الحرب العامة- مجالاً إلى العمل باقتراح الجنرال المذكور.

فسارت جيوش الثورة العربية- بقيادة الامير فيصل- نحو الشمال، واستولت على شرق الاردن، ومن هناك واصلت الزحف شمالا- مدعومة بالجيش البريطاني- حتى دخلت دمشق فحمص وحماه فحلب.. وارغمت الجيوش التركية على الجلاء عن البلاد السورية بأجمعها.

ولكن، خلال هذه الحركات الاخيرة، كانت المانيا، والمتفقون معها- فقدوا الأمل في النصر، وطلبوا وساطة ويلسون لانهاء الحرب. وفرنسا بعدما تأكدت من زوال الخطر عن بلادها، سارعت إلى طلب الاشتراك في احتلال سوريا . فقرر اللنبي- القائد العام لقوات الحلفاء في تلك الديار- تقسيم البلاد الشامية إلى ثلاث مناطق تدار عسكريا : المنطقة الجنوبية، تضم القسم الساحلي من حدود مصر حتى رأس الناقورة، وتدار من قبل الجيش البريطاني. المنطقة الغربية، تضم القسم الساحلي اعتباراً من شمال رأس الناقورة، وتدار من قبل الجيش الفرنسي. والمنطقة الشرقية، تتألف من ولايتي سوريا وحلب، وتدار من قبل الجيش العربي، بقيادة الامير فيصل.

وأعلن اللنبي : ان هذا تدبير اداري محض؛ اتخذ تمشياً مع قواعد حقوق الدول التي تقضي بادارة " بلاد العدو المحتلة " عسكريا، حتى عقد الصلح بين المتحاربين ، وصرّح بأن ذلك لن يؤثر على مستقبل تلك البلاد. الذي لا بد من تقريره على مائدة الصلح.

-٣-

**بعد الحرب العالمية**

أ- عندما وقعت الدولة العثمانية على " اتفاقية الهدنة " في " مودروس "، كانت أوضاع " الولايات العربية " تتلخص بما يلي:

العراق- بأجمعه تحت احتلال الجيش البريطاني.

سوريا- مقسمة إلى ثلاثة اقسام : قسمها الساحلي الجنوبي تحت احتلال الجيش البريطاني، قسمها الساحلي الشمالي تحت احتلال الجيش الفرنسي. اقسامها الداخلية تحت ادارة الجيش العربي.

واما الحجاز، ونجد، واليمن.. فقد انفصلت عن السلطنة العثمانية بصورة فعلية، دون أن تنكب باحتلال دولة من الدول الاوروبية.

ولكن المطامع والنوازع السياسية التي تحوم حول البلاد المذكورة وتتجاذبها ،كانت متضاربة ومتشابكة جدا:

كان هناك أماني الاستقلال والنهوض التي تجيش في صدور رجال الثورة وأحرارالعرب.

وكانت الآمال المنبعثة من المبادىء المشهورة التي اعلنها ويلسون وحمل الدول المتحالفة على تأييدها؛ ومن التصريحات الصادرة عن بعض القواد- باسم الحكومة- معلنة بأنهم لم يأتوا إلى البلاد كفاتحين، انما أتوها كمحررين..

وكانت هناك وعود بريطانيا المقررة في مكاتبات " حسين وماكماهون " حول استقلال البلاد العربية.

ولكن- خلافاً لكل ذلك- كانت هناك اطماع فرنسا وانكلترا التقليدية في حكم البلاد المذكورة واستعمارها. واتفاقية سايكس- بيكو المعقودة بينهما لتعيين حصة كل منهما.

وفي حومة هذه الامور المتضاربة، أخذ مؤتمر الصلح- المنعقد في باريس- على عاتقه تقرير مصير البلاد التي كانت تابعة إلى السلطنة العثمانية- ومن جملتها البلاد العربية.

ب- من المعلوم أن مقاليد المؤتمر المذكور كانت في ايدي " الاربعة الكبار ": ويلسون، لويد جورج، كليمانصو، واورلاندو.. رؤ ساء حكومات الولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا العظمى وفرنسا وايطاليا..

وكان صوت ويلسون يعلو على أصوات الجميع، في بادىء الامر. لأن النصر لم يتم الا بفضل اشتراك بلاده في الحرب. فضلا عن أن الولايات المتحدة الامريكية لم تتعرض إلى شيء من أهوال الحرب، بل خرجت منها وهي أقوى مما كانت عليه قبلاً ، من جميع الوجوه المادية والمعنوية.

وتمسك ويلسون في المؤتمر بمبادئه المعلومة حول حق الشعوب في تقرير مصيرها ؛ وفتح أبواب المؤتمر لسماع مطالب الشعوب وأمانيها [ **لقد تلقى مؤتمر الصلح، من مختلف الجماعات السياسية، كثيراً من المطاليب والمشاريع، لتكوين بعض الدول الجديدة. وكان ثلاثة منها تتصل بالبلاد العربية من بعض جهاتها، فضلا عن انها كانت تتضارب وتتشابك في الكثيرمن اقسامها- كما يتضح من الخارطة (رقم ٤)]** .

وعندما سمع مطالب الوفود العربية، رأى من الضروري استفتاء الشعب في سوريا، قبل اتخاذ اي قرار في شأنها.

ولكن كليمنصو ولويد جورج، لم يستصوبا هذا الرأي الذي كان لا بد من أن يعرقل تحقيق مطامعهما المضمرة: وأخذا يماطلان في الامر بحجج شتى ؛ فاضطر ويلسون إلى الانفراد في أمر الاستفتاء، وارسل لجنة امريكية لاستطلاع مطالب الشعب واحواله.

واللجنة سافرت إلى سوريا، وقامت بالابحاث اللازمة فيها، ولكن.. قبل أن تفرغ من كتابة تقريرها، تغير الرأي العام في امريكا تغيراً جوهرياً أدى إلى عودة ويلسون إلى بلاده، فانسحابه من رئاسة الجمهورية. وانتهت الامور السياسية هناك على أساس تقرير مبدأ " عدم التدخل في الشؤون الاوروبية ".

وبذلك تركزت مقاليد مؤتمر الصلح في أيدي لويد جورج وكليمانصو وحدهما- ( لأن صوت ايطاليا كان ضعيفاً من حيث الاساس).

ولكن هذين العاملين لم يكونا على وفاق تام في أمر " الاقتسام ". في الواقع ، أن اتفاقية " سايكس- بيكو" المعلومة كانت قررت حصة كل منهما من ميراث الدولة العثمانية. غيرأن بريطانيا العظمى، لم تشأ أن تتخلى عن الموصل وعن فلسطين- عملاً بأحكام الاتفاقية المذكورة- بعد أن فتحتهما بجيوشها وركزت حكمها فيهما. فأخذت تقول بوجوب اعادة النظر فيها، بحجة تغير الاحوال والاوضاع : زعمت أن احكام الاتفاقية المذكورة كانت تقررت مراعاة لمصالح روسيا ومطالبها، وبما أن روسيا خرجت عن صفوف الحلفاء، اصبح من الضروري اعادة النظر فيها.

وأخذت بريطانيا العظمى تتفاوض وتتساوم مع فرنسا من جديد، إلى أن اتفقت معها على الاسس التالية:

الموصل تبقى في أيدي بريطانيا، على أن تعطي لفرنسا حصة من نفطها.

فرنسا تكون حرة في عمل ما تشاء في القسم الداخلي من سوريا أيضاً ، على أن تترك لبريطانيا حرية العمل في كل البلاد التي تقع جنوب درعا.

ج- خلال جريان هذه المفاوضات- سراً- بين فرنسا وبريطانيا، كانت سوريا حوّلت الادارة العسكرية إلى ادارة مدنية، وجمعت مؤتمراً يمثل جميع أقسام البلاد الشامية، ثم أعلنت استقلال البلاد- بحدودها الطبيعية- وطلبت جلاء الجيوش الفرنسية والبريطانية من جميع أقسامها.

ولكن فرنسا وبريطانيا، لم تعترفا بهذا الاستقلال. وبما أنهما كانتا اتفقتا على تسوية خلافاتهما- كما ذكرنا ذلك آنفاً- حملتا مجلس الصلح على اتخاذ قرار نهائي بشأن البلاد المذكورة : " ستكون العراق وفلسطين تحت انتداب بريطانيا العظمى، وسوريا ولبنان تحت انتداب فرنسا ".

وبعد ذلك ، حشدت فرنسا الجيوش اللازمة في لبنان، وزحفت منها على دمشق، فاحتلت سوريا- بعد واقعة خان ميسلون-، بحجة تنفيذ القرار المتعلق بالانتداب.

بهذه الصورة، بسط الاستعمار الأوروبي أجنحة سيطرته على جميع البلاد العربية الممتدة بين شواطىء البحر الأبيض المتوسط وجبال ايران.

وبما أن بريطانيا العظمى، كانت فرضت حمايتها على الامارات والمشيخات القائمة في جنوب الجزيرة العربية وفي سواحل الخليج العربي، منذ مدة طويلة، كما أنها كانت أعلنت " الحماية " على مصر، منذ بداية الحرب.. وبما أن سائر أقطار أفريقيا العربية كانت دخلت- قبلاً- تحت سيطرة ايطاليا وفرنسا واسبانيا..

أصبح الاستعمار الأوروبي مسيطراً على جميع البلاد العربية- تحت اسم الالحاق أو الحماية أو الانتداب ، من المحيط إلى الخليج والجبال- باستثناء الحجاز ونجد واليمن.. وذلك سنة ١٩٢٠.

د- ولكن، من المعلوم، أنه بعد ذلك التاريخ، قامت في البلاد العربية سلسلة طويلة من الثورات، انتهى معظمها إلى التحرر من الحكم الأجنبي والسيطرة الاستعمارية، وذلك في تواريخ مختلفة. والآن، لم يبق من البلاد العربية تحت الحكم الأجنبي سوى الجزائر من جهة، والجنوب العربي والخليج العربي من جهة اخرى.

هذا، والثورة البطولية التي يخوض غمارها الجزائريون منذ سبع سنوات لا تترك مجالاً للشك في أن تحررها لن يتأخر كثيراً، كما أن اليقظة القومية التي صارت تدب في جنوب الجزيرة العربية والخليج، تجعلنا نأمل أملاً قوياً بأن تحرر تلك البلاد العربية ايضاً سيتم في وقت غيربعيد.

**خاتمة**

وقبل أن اختتم هذا البحث، أرى أن اشير إلى الحقيقة التالية:

إن الاستعمار الأوروبي الذي جثم طويلاً على صدور مختلف الاقطار العربية، قد خلّف، قبل أن يزول، كثيراً من البذور والآثار الضارة.

وأنا اعتقد أن أضر وأخطر هذه البذور والآثار، كان: تجزئة البلاد إلى دول ودويلات عديدة، وفصل بعضها عن بعض بحدود مصطنعة، وتوجيه كل منها اتجاهاً يختلف عن اتجاه غيرها.. وبالنتيجة: تهيئة البيئة الصالحة لتنمية " روح الاقليمية " في كل واحدة منها.

إني كنت عبرت عن رأيي هذا، في الكلمة التي صدرت بها كتابي " العروبة أولاً "، تحت عنوان " ما أغربنا! " سنة ١٩٥٤.

أود أن اكرر تلك الكلمة هنا، ختاماً لهذا البحث:

إننا ثرنا على الانكليز، ثرنا على الفرنسيين...

ثرنا على الذين استولوا على بلادنا، وحاولوا استعبادنا...

كررنا الثورات الحمراء عدة مرات، وواصلنا الثورات البيضاء عدة عقود من السنين...

وقاسينا في هذا السبيل ألواناً من العذاب، وتكبدنا أنواعاً من الخسائر، وضحينا كثيراً من الأرواح...

ولكنا:
عندما تحررنا من نير هؤلاء.. أخذنا نستقدس الحدود التي كانوا أقاموها في بلادنا، بعد أن قطعوا أوصالها...

ونسينا ان تلك الحدود، إنما كانت حدود " الحبس الانفرادي "، و" الاقامة الاجبارية " التي كانوا فرضوها علينا..!...

******

**(*) ان تركت " الصهيونية " خارج نطاق بحثي هذا فلأنها " حركة استعمارية من نوع خاص!، تختلف عن " الاستعمار الأوروبي من وجوه عديدة، وإن كانت وليدته ورضيعته المدللة. وقد اشتركت- ولاتزال تشترك- فيها، وفي تغذيتها وتقويتها، امريكا مع أوروبا، انها يجب أن تكون موضوع بحث خاص، مستقل عن بحث " الاستعمار الأوروبي " هذا.**

**الأرض والانسان**

إن مسألة " تأثير المناخ وسائر الأحوال الجغرافية، في الأحوال البشرية والاحداث التاريخية "، أثارت تأملات الكثيرين من الفلاسفة والعلماء، فصارت موضوع ابحاث وكتابات متنوعة، منذ القرون الأولى.

وهذه الأبحاث نشطت، وتوسعت، وتنوعت- بوجه خاص- منذ أواخر القرن الماضي ؛ وكوّنت " فروع علوم " جديدة سميت بأسماء خاصة، مثل:

انتروبوجغرافيا Anthropogeographie
سوسيوجغرافيا Sociogeographie
جيوسوسيولوجيا Geosociologie

وفضلاً عن ذلك، فإن هذه الابحاث لم تبق محصورة في ميادين النظريات، بل تعدت ذلك إلى ميادين التطبيقات في شؤون الحرب والسياسة، فكوّنت فرعين عمليين هما:

جيوبوليتيك Geopolitique
جيوستراتيجي Geostrategie

والمؤلفات التي دوّنت نتائج هذه الابحاث المختلفة، تضمنت كثيراً من الحقائق الهامة، ولكنها لم تخل من الآراء الخاطئة والنظريات الواهية ذلك لأن بعض الباحثين كان يتسرع في " التعميم "، ويزعم أن ما شاهده في بعض الأمكنة وبعض الأزمنة، ينم عن " قانون عام "، يشمل سائر الأمكنة والأزمنة. وينزلق- لهذا السبب- إلى مهاوي الأغلاط ، بطبيعة الحال.

كما أن بعض الباحثين كان يتأثر بالاعتبارات السياسية، وينجذب نحو الآراء والنظريات التي تلائم مصالح بلاده وتدعم نزعاتها السياسية، ويتباعد بذلك عن مناحي الابحاث العلمية السليمة.

وأمثال هذه النزعات السياسية لم تتجل في الابحاث التطبيقية فحسب، بل كثيراً ما سيطرت على الابحاث النظرية البحتة، التي تبدو مجردة عن الغايات النفعية أيضاً .

مثلاً : الآراء والنظريات التي نشرها " فردريك راتسل " الالماني، لم تنج من تأثيرات " مطالب السياسة الالمانية " التي كانت معروفة في زمانه، وذلك على الرغم من سعة أبحاثه الجغرافية، وشدة نزعاته العلمية.

كما أن الآراء والنظريات التي سردها " هالفورد ماكيندر " الانكليزي، صارت انعكاساً لمتطلبات " سياسة الامبراطورية البريطانية " في عهد وصولها إلى أوج العظمة والاتساع، وذلك بسبب انغماسه في تلك السياسة بصورة فعلية.

ولهذه الأسباب أقول: أن معرفة الحقائق في هذه القضايا، تتطلب تمحيص الآراء والنظريات المسرودة في المؤلفات المذكورة بنظرات انتقادية علمية جدية.

إني كنت لاحظت- منذ مدة غير قصيرة- أن الآراء والنظريات الخاطئة عن " تأثير البيئة الطبيعية في الشؤون البشرية " صارت تسيطر على اقلام الكثيرين من كتاب العرب- في ميادين الأدب والعلم والسياسة: صار عدد كير قليل منهم يتبنى كل ما يصل إلى علمه عن هذه الآراء والنظريات على علاتها، دون أن يتعمق في درس تفاصيلها. أو يلاحظ ظروف نشرها، ودون أن يتتبع ما قام حولها من مناقشات، وما أدخل عليها من تعديلات وتصحيحات نتيجة تلك المناقشات.

ولذلك رأيت أن ألفت الأنظار إلى خطأ هذه الاتجاهات الفكرية، اولا- سنة ١٩٥٢- في كتابي " العروبة بين دعاتها ومعارضيها "، ثم - سنة ١٩٥٥- في كتابي " دفاع عن العروبة ". وذلك أولاً خلال نقدي لآراء انطون سعادة، ثم بمناسبة نقدي لفكرة " الشرق الأوسط " [ **ساطع الحصري – ابوخلدون - : العروبة بين دعاتها ومعارضيها ( بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٥٢ ) ، ص ٧٩-٨١و ١٣١-١٣٥ ، ودفاع عن العروبة ( بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٥٦ ) ، ص ٥٢ -٦١ و ١١٠-١٤٢ .** ] .

ولكني لاحظت- منذ ذلك التاريخ- ان هذه النظريات الخاطئة صارت تسيطر على دراسات البعض من أساتذة الجامعات، حتى أنها أخذت توجه كتاباتهم المتعلقة بالقومية العربية.

فقد تعددت الكتب والمقالات التي تزعم أن البيئة الطبيعية تقرر تاريخ الأمة، وتوحي إلى القراء الاعتقاد بنوع من " الحتمية "، بل " القدرية "، الجغرافية.

ولذلك رأيت أن أتناول هذه القضايا- بتفصيلات وافية- في هذا الكتاب . فانتقدت كتاب الدكتور جمال حمدان، من جراء استرساله في ربط أمور القوميات بخصائص الجغرافيا الطبيعية، ثم كتبت المقالات التالية، لاعطاء فكرة اجمالية عن تاريخ هذه الآراء والمذاهب، مع نقد نظرية " الحتمية الجغرافية ".

**نظرات تاريخية**

-١-

أ- إن الآراء المتعلقة بتأثير الطبيعة والمناخ في الأمور البشرية، بدأت تظهر في المؤلفات الفلسفية منذ القرون الاولى. فإن بقراط وافلاطون وارسطو كانوا في مقدمة الباحثين في هذا التأثير.

وبعد ذلك، ظلت أمثال تلك الآراء والابحاث تتكرر وتتوسع في مؤلفات الكثيرين من الفلاسفة، ولا سيما في كتب فلاسفة التاريخ.

انا لن استعرض هنا كل ما قاله الفلاسفة في هذا المضمار، خلال القرون المختلفة. بل سأكتفي بإلقاء نظرة سريعة الى ما كان قاله " مونتسكيو" في ذلك، في كتابه " روح القوانين " المنشور سنة ١٧٤٨. لأن المفكر المشار اليه كان أكثر الفلاسفة توسعاً في هذه الابحاث وأشدهم مغالاة في تعليل الأمور البشرية بتأثير الأحوال الطبيعية. فقد خصص نحوثمانين فصلاً من فصول مؤلفه المذكور لبحث هذه التأثيرات. فمعرفة البعض مما قاله مونتسكيو في هذا المضمار، تغنينا عن الرجوع إلى ما قاله أسلافه قبلا.

أنقل فيما يلي بعض النماذج من آراء مونتسكيو في هذا الشأن.

" إن سكان البلاد الحارة يكونون جبناء، مثل الشيوخ، في حين أن سكان البلاد الباردة يكونون- شجعان، مثل الشبان ...

" حساسية الانسان للذة والألم ، تكون ضعيفة في البلاد الباردة، وأقوى من ذلك في البلاد المعتدلة ، وتصل إلى درجة الافراط في البلاد الحارة ...

" سكان البلاد الباردة يمتازون بكثرة الفضائل ، وقلة المفاسد ، وقوة الصراحة ، وقلة الانانية . فإننا كلما انتقلنا من الشمال إلى الجنوب ، نكون قد تباعدنا عن مناطق الاخلاق الفاضلة ، فشاهدنا أمماً تنقص فيهم روح التشوف والاقدام والكرم ، ويزداد فيهم الكسل والأنانية، وتتفشى بينهم المفاسد والجرائم ...

" أقوام الشمال تتغلب دائما وابداً على أقوام الجنوب...

" الحرية والديمقراطية لا تتأسس إلا عند امم الشمال. وأما أمم الجنوب فتتصف بالعبودية والاستسلام، بوجه عام. كما أن دولها لا تعرف معنى للحرية والديمقراطية، فتكون مستبدة وظالمة ، بدون استثناء...

" إن المناخ هو الذي عين وقرر الحدود الفاصلة بين بلاد الديانة الاسلامية وبلاد الديانة المسيحية ..

" إن تأثير المناخ، تجلى حتى في تقرير الحدود بين فرعي المسيحية، أي: بين الكاثوليكية والبروتستانتية...

" عدد التكايا والاديرة- مثل عدد الرهبان والدراويش- يزداد بازدياد حرارة الاقليم ... "

إن كتاب مونتسكيو مليء بمزاعم مماثلة لهذه، في أمر تعليل الأمور البشرية بتأثير الطبيعة.

ولكن بطلان هذه المزاعم لا يحتاج إلى شرح طويل: فإن الابحاث التاريخية والاجتماعية تدل دلالة قاطعة على أن الجبن والشجاعة، والفضيلة والأنانية.. مثل سائر مظاهر الحياة الاخلاقية تتبع سلسلة طويلة ومتشابكة من العوامل، ولذلك تختلف من مدينة إلى مدينة في الأقليم الواحد، ومن حي إلى حي في المدينة الواحدة، ومن دار إلى دار في الحي الواحد، كما أنها تختلف من عصر إلى عصر في المدينة الواحدة،

وفي الأقليم الواحد. وأما الأديان والمذاهب، فلا تتقيد بأقاليم معينة، بل تنتشر في شتى الاقاليم، كما أنها تتوسع في بعض الأقاليم، وتنحسر عن بعض الاقاليم، بتوالي العصور.

فتعليل امثال هذه الأحوال الاجتماعية بتأثير الطبيعة والمناخ ، يبعدنا عن ادراك حقائق الأمور [ **تفصيل آراء مونتسكيو ومنتقديه في هذا المضمار في " بحث ابن خلدون ومونتسكيو " من كتابي : دراسات عن مقدمة ابن خلدون ( القاهرة : دار المعارف ، ١٩٥٣ ) ، ص ٢٢٠-٢٢٩ ] .**

ب- إن اخطاء مزاعم مونتسكيو هذه، كانت لفتت انظار البعض من معاصريه، وحملتهم على نقده في حياته، وكان " فولتير " المشهور على رأس هؤلاء المنتقدين .

ومع هذا ظل بعض الفلاسفة يؤمنون- مثله- بتبعية الشؤون البشرية إلى الطبيعة الجغرافية.

ربما كان أبرز هؤلاء، من حيث التمسك بهذا الاعتقاد، هو الفيلسوف الفرنسي فيكتور كوزن؟ Victor Cousin (١٧٩٢- ١٨٦٧) فإنه تطرق إلى هذه القضية في المقدمة التي كتبها لمؤلفه الضخم " تاريخ الفلسفة ". حيث قال:

" نعم- أيها السادة!.. اعطوتي خارطة بلد ما، واعلموني تضاريسها، مياهها، مناخها، رياحها، وكل معالم جغرافيتها الطبيعية، واطلعوني على محصولاتها الطبيعية، مجموعة نباتاتها وحيواناتها. وأنا اتعهد بأن أقول لكم- مقدماً- ماذا سيكون " انسان ذلك البلد "، وماذا سيكون الدور الدي سيلعبه في التاريخ،.. ليس بصورة عارضة، بل بالضرورة.. وليس في عهد من عهود التاريخ، بل في جميع أدوار التاريخ... كما أقول لكم في آخر الأمر، ماذا ستكون الفكرة التي سيدعو إلى تمثيلها... ".

ولكن هذه المزاعم لا تستند إلى وقائع ثابتة، وتجانب الحقيقة مجانبة كلية.

فإن نظرة واحدة إلى تاريخ بلاد اليونان- مثلاً- تكفي لاظهار بطلان تلك المزاعم الى العيان:

من المعلوم أن جغرافية بلاد اليونان الطبيعية لم تتغير طوال عصور التاريخ المدون. ومع هذا، قد تعرضت أحوال سكانها العقلية والاجتماعية والسياسية إلى تغيرات وتطورات كثيرة وهائلة. تلك البلاد التي كانت مولداً ومنبتاً لما سماه أرنست رينان بـ " المعجزة اليونانية ".. لم تتمتع بحياة فكرية زاهرة إلا مدة عصور معدودة. انها كانت- قبل ذلك- موطناً لقبائل همجية، وصارت بعد تلك العصور الزاهرة مسرحاً لحياة الركود والخمول والانحطاط.. حتى اصبحت- في عصر من العصور الاخيرة مرتعاً لقطاع الطرق الذين عرفوا باسم " حرامية الجبال ". وذلك قبل أن تبعث الأمة اليونانية من رقدتها الطويلة، فتأخذ مكاناً يليق بماضيها بين الأمم العصرية.

ولا حاجة إلى القول أن تغير الأحوال على هذا المنوال لم يكن من الأمور الخاصة ببلاد اليونان، بل له أمثال كثيرة جداً في تواريخ مختلف بلاد العالم.

فالقول- والحالة هذه- بأن " الجغرافيا " تقرر خصائص الأقوام وتعين تواريخ الدول، لا يتفق مع الحقائق الثابتة، بوجه من الوجوه.

ج- ومن الغريب أن عالم الطبيعيات المشهور " بوفون " Buffon (١٧٠٧- ١٧٨٨) كان فهم علاقة الانسان بالأرض بصورة أحسن بكثير مما فهمها مونتسكيو وكوزن. لأنه وصف تأثير الانسان في الأرض وصفاً رائعاً ، إذ قال:

" منذ نحو ثلاثين قرناً من الزمان، انضمت قدرة الانسان إلى قدرة الطبيعة. وبفضل ذكائه :
نشأت صنوف الحيوانات الأهلية، وخضعت لحكم الانسان، وصارت تطيعه على الدوام. وقد جففت المستنقعات، وحُصرت مجاري الأشهر، وأزيلت الجنادل.. وفتحت المماشي والميادين الواسعة بين الغابات.. ازدانت الحقول بالمزروعات والمغروسات. فأصبح وجه الأرض- بأجمعه- يحمل طابع قدرة الانسان. تلك القدرة التي- وإن كانت تابعة إلى قدرة الطبيعة- كثيراً ما عملت أكثر منها، وعلى كل حال ساعدت عمل الطبيعة مساعدة رائعة..

" والإنسان هو الكائن الحي الوحيد الذي يستطيع أن يعيش ويتكاثر في كل اقاليم الأرض بدون استثناء".

ولا شك في أن تأثير الانسان في الأرض يجب أن يلاحظ بجانب تأثره من الأرض.

***

أ- إن أبحاث " تأثير الأرض في الانسان " لم تبق تحت احتكار الفلاسفة، بل صارت تجذب اهتمام علماء الجغرافيا أيضاً، وذلك منذ الربع الأخير من القرن الماضي، بوجه خاص.

وطبيعي أن هؤلاء لم يرخوا العنان إلى التأملات المجردة في هذا الميدان- كما كان فعل الفلاسفة ، بل تقيدوا في ابحاثهم هذه بقيود الواقعات، ولذلك استطاعوا أن يكتشفوا كثيراً من الحقائق.

ومع هذا، فإنهم لم يسلموا تماماً من نزعة " المغالاة في تقدير مبلغ تأثير العوامل الجغرافية في الشؤون البشرية "، ولذلك انزلق طائفة منهم إلى آراء ونظريات خاطئة، تارة مدفوعين بروح التسرع في التعميم، وطوراً منقادين إلى جاذبية السياسة، وطوراً آخر متأثرين بهذين العاملين في وقت واحد.

ب- إن اول عالم جغرافي أقدم على القيام بأبحاث واسعة النطاق لمعرفة وجوه تأثير الأحوال الجغرافية في الشؤون البشرية- وتوصل الى احكام ونظريات هامة في هذا الميدان- كان الاستاذ الألماني " فردريك راتسل " F.Ratzel (١٨٤٤- ١٩٠٤).

لقد نشر، سنة ١٨٨٢ كتاباً ضخما بعنوان " أنتروبو جيوغرافي " Anthropogeographe يعني " الجغرافيا البشرية ". ثم أصدر له مجلداً ثانياً سنة ١٨٩٢.

وبعد ذلك وسع أبحاثه هذه وأصدر عنها طبعة جديدة، سنة ١٨٩٧. وفي نفس السنة نشر كتاباً في " الجغرافيا السياسية " على أساس تفسير وتعليل الواقعات. ثم اصدر سنة ١٩٠٠ كتيباً بعنوان " البحر كمصدر عظمة للدول ". وفي نفس السنة، نشر في " حولية علم الاجتماع " Annee Sociologique- التي تصدر في باريس- مقالة هامة، تحت عنوان " الأرض والمجتمع والدولة "، عرض فيها زبدة النظريات التي كان قد توصل اليها من ابحاثه الشاملة والطويلة.

إن المؤلفات المذكورة احتوت كثيراً من المعلومات الجغرافية والاتنوغرافية واظهرت عدداً غير قليل من الحقائق الهامة. ولكنها لم تخل من بعض الآراء والأحكام الخاطئة.

ج- إن أبحـاث راتسـل ومؤلفاتـه أوجـدت حركـة فكريـة قويـة فـي المانيـا، ووجـدت كثيـراً مـن الانصـار والتلاميذ، الذين صاروا يقتدون به في أبحاثهم المختلفة.

وقد توسع هؤلاء الأخلاف- بوجه خاص- في النـواحي السياسـية مـن الجغرافيـا البشـرية. ورأوا أن يسموا هذه الأبحاث الجديدة باسم خاص، فوضعوا كلمة " جيوبوليتيك " Geopolitik للدلالة على هذا الفرع من العلوم الجغرافية.

وبعد الحرب العالمية الأولى ، أسس أحد تلاميذ راتسل " كـارل فـون هافشـهوفر " k.Von Haushofer معهداً خاصاً للدراسات الجيوبوليتكية، وأخذ يصدر مجلة خاصة بهذا النوع من الابحاث.

د- ولكن آثار وأصداء أبحاث ونظريات راتسل لم تبق منحصـرة بألمانيـا. بل تعدتها إلـى بـلاد اخرى، ولا سيما إلى امريكا.

وقد تولـت الباحثـة الامريكيـة " ميـس ألـن تشـرتشـل سـمبل " Ellen Churchill Semple -( ١٨٦٣ – ١٩٣٢ ) نشر آراء راتسل مع تطبيقها على أحوال امريكا بوجه خاص. فقد نشـرت أولاً - سـنة ١٩٠٣- كتابا بعنوان " تـاريخ أمريكـا، وعواملـه الجغرافيـة ". ثم نشـرت سـنة ١٩١١؛ كتابـاً أشمل موضوعاً من ذلك، بعنوان " تأثير البيئة الجغرافية " وصرحت تحت العنوان المذكور بأنه " مؤسس على مذهب راتسل في الأ نتروبوجغرا فيا ".
Influence of geographical environment , on the basis of Ratzel system of Anthro- pogeograph .
وقد اعقبها في امثال هذه الابحاث، في امريكا علماء عديدون وكان أقدمهم وأشهرهم " ألسوورث هنتنجتون " Ellswarth Huntington

هـ- وأما في انكلترة، فـأول وأهم البـاحثين فـي هـذه الأمـور كـان السـير " هـالفورد ماكينـد ر " Halford Mackinder (١٨٦١- ١٩٤٧).

إنه كان من علماء الجغرافيا، ولكنه صـار في الوقت نفسه من رجال السياسة. وقد تـولى أعمـالاً هامـة، في داخل البرلمان وخارجه، حتى أنـه صـار مندوبـاً سـامياً فـي اوكرانيـا، عندما احتلها الحلفاء، خـلال التفتت السياسي الذي حدث في روسيا، عقب قيام الثورة البلشفية.

لقـد اشـتهر ماكينـدر فـي عـالم العلم، أولاً، بالكتـاب الـذي نشـره سـنة ١٩٠٣، عـن " الجـزر البريطانيـة وبحارها".

ثـم نشـر سـنة ١٩٠٤ مقالـة تحت عنـوان " المحـور الجغرافـي للتـاريخ ". Geographical Pivot of History في مجلة الجمعية الجغرافية البريطانية.

وبعد ذلك وسع الآراء والنظريات الأساسية التي كـان عرضـها في المقالـة المذكورة، بتفاصيل اوفـى، في كتاب نشره سنة ١٩١٩، بعنوان " المثل الديمقراطية وحقائقها".

فقد اشتهر الكتاب المذكور، واعيد طبعه عدة مرات.

و قد تولى توسيع نظريات ماكيندر واتمامها، انكليزي آخر، هو " فيرجريف " Fairgreeve .

و- في فرنسا أيضاً، اتخذ علماء عديدون قضية " تأثير الجغرافيا في الأمور البشرية " موضوع أبحاث ودراسات خاصة، ونشروا عنها كثيراً من الكتب والمقالات، تحت عنوان " الجغرا فيا البشرية " Geographie humaine.

وكان في مقدمة هؤلاء الجغرافيين " فيدال دولابلاش " Vidal de la blach(١٨٤٥- ١٩١٨) و" جان برون " Jean Bruhnes (١٨٦٩- ١٩٣٠).

كما اشتهر " أليزه ركلوس " Elisee Reclus(١٨٣٠- ١٩٠٥) بمؤلفه الضخم " الانسان والأرض " L,homme et la Terre

-٤-

أ- إن مسألة " تأثير الأحوال الطبيعية في الأمور البشرية " أثارت اهتمام علماء الاجتماع أيضاً، بطبيعة الحال.

فإنهم، عندما اخذوا يدرسون احوال المجتمعات البشرية ويستقصون عوامل تطورها، رأوا من الضروري أن يدرسوا " البيئة الطبيعية " التي يعيش فيها كل نوع من أنواع تلك المجتمعات.

فريدريك لوبلاي F.Le Play (١٨٠٦- ١٨٨٨ ) وأدمون ده مولان E.Demoulin (١٨٥٢- ١٩٠٧)، وفيكتور برا نفورد Victor Baranfor (١٨٤٤- ١٩٠٣) و با تريك جد Patrik Gedde (١٨٥٤- ١٩٣٢) كانوا في مقدمة هذا الرهط من الباحثين . فانهم عندما وضعوا خططهم العلمية لدرس المجتمعات البشرية، وقاموا بأبحاث اجتماعية وفقاً لتلك الخطط ، أفردوا مكاناً خاصاً للبيئة الطبيعية، في تلك الأبحاث.

هذا، ومن جهة اخرى، كان من الطبيعي أن يلتفت علماء الاجتماع إلى الآراء والنظريات التي أبداها علماء الجغرافيا حول هذه المسألة، ويسلطوا عليها أنوار أبحاثهم الاجتماعية، لاظهار أوجه الخطأ والصواب فيها.

وفعلاً، قد خصص " أميل دوركهايم " (١٨٥٨-١٩١٧)- مؤسس المدرسة الفرنسية المشهورة في علم الاجتماع- فصلاً لذلك في " حولية علم الاجتماع " L,Annee Sociologique التي تولى نشرها، منذ اواخر القرن الماضى. وقد بدأ يستعرض آراء راتسل الألماني- الذي ذكرته آنفاً - ويعلق عليها، اعتباراً من سنتها الاولى. انه قدر أبحاث " راتسل " حق قدرها، ومع انه وجد فيها كثيراً من الأخطاء، قد اعتبر تلك الأخطاء من " الأمور الطبيعية التي تحدث عند بدء استكشاف الحقائق في ميادين علمية جديدة ". ولذلك دعا إلى متابعة تلك الأبحاث، واعتبرها جزءاً من " المرفجة الاجتماعية ".

وبعد ذلك، تعددت وتوالت أبحاث علماء الاجتماع في هذا المضمار، في مختلف البلاد، تارة عن طريق الدرس المباشر، وطوراً عن طريق تبني أبحاث علماء الجغرافيا أو انتقادها.

ولذلك، قد أفرد " سوروكين " Sorkin- الروسي المتأمرك- في كتابه " النظريات السوسيولوجية المعاصرة"- الذي نشر سنة ١٩٢٨- فصلاً خاصاً بما سماه " المذهب الجغرافي في علم الاجتماع "، استعرض وانتقد فيه أهم الآراء والنظريات المتعلقة بهذه المسألة.

والآن، نستطيع أن نقول: أن مؤلفات " علم الاجتماع " الهامة تخصص- بوجه عام- فصلاً لأبحاث " البيئة الطبيعية والمجتمع البشري "، تظهر فيه وجوه التأثير والتأثر، أي : التفاعل، بين البيئة والمجتمع.

ب- غني عن البيان ان صنوف العلماء الذين أشرت اليهم آنفاً- علماء الجغرافيا وعلماء الاجتماع- ما كانوا يكتفون بدرس مسألة " البيئة والمجتمع " كما تتجلى في الأحوال الحاضرة، بل كانوا يضطرون إلى تشميل أبحاثهم على أحوال العصور الماضية، ولذلك كانوا يستعينون- على الدوام- بالمعلومات والأبحاث التاريخية.

وطبيعي أن علماء التاريخ أنفسهم لم يبقوا غير مكترثين بهذه المسائل، بل صاروا يلقون عليها اضواء ابحاثهم التاريخية.

ولهذا السبب، نجد: أولاً في مؤلفات " فلاسفة التاريخ "، ثم في مؤلفات " التاريخ " بوجه عام، بحوثاً جغرافية تصف مسارح الاحداث التاريخية، وتتطرق إلى تأثير العوامل الطبيعية في تلك الاحداث.

ج- يتبين من كل ما سبق، ان مسألة " الأرض والانسان " أو " البيئة والمجتمع "، صارت موضوع أبحاث علم الاجتماع والتاريخ والجغرافيا.

إن تضافر ابحاث هؤلاء كان ضرورياً، لكي يتيسر درس هذه المسألة المعقدة، دراسة عميقة شاملة من جميع الوجوه المختلفة.

وأرى من المفيد أن أذكر في هذا المقام ما قاله المؤ رخ المفكر الفرنسي " هانري بر Henri Berr " في هذا المضمار.

من المعلوم أن العالم المشار إليه تولى رئاسة الاختصاصيين الذين ألفوا كليات " تطور البشرية " , L Evolution de l,humanite ، ودأب على كتابة مقدمة كل مجلد من مجلداتها.

وقد جاء في المقدمة التي كتبها للمجلد الذي يحمل عنوان " الأرض وتطور البشرية " La terre et l,evolution لمؤ لفه لوسيان لوفبور " Lucien Lefebur العبارات الصريحة التالية :

" ان مسألة تأثير البيئة، لا يمكن أن يختص بها الجغرافي الصرف. لأن الجغرافي الصرف - الجغرافي المتجغرف- le geographe geographisant يميل إلى أحد الآمرين: إما لا يكترث بالتاريخ، وإما ينظر إليه من خلال الجغرافيا. دراسة هذه المسألة المعقدة، يجب أن يقوم بها جغرافي مؤ رخ، أو مؤرخ جغرافي، على أن يكون- فضلاً عن ذلك- من دارسي علم الاجتماع .

ومهما كان الأمر، فإن تضافر الأبحاث الاجتماعية والتاريخية والجغرفية التي قام بها العلماء حول هذه المسألة ساعد كثيراً على غربلة الآراء واستجلاء الحقائق، وأدى إلى نتائج يمكن أن تعتبر " صائبة وعملية ".

إني سأعرض فيما يلي، أهم هذه النتائج، وهي مسألة " الحتمية الجغرافية ".

**نظرية الحتمية الجغرافية**

-١-

أ- ما هو مدى تأثير العوامل الجغرافية في الأحوال الاجتماعية والأحداث التاريخية؟

هل يصل هذا " التأثير" إلى حد " التحتيم "؟

هل تتحكم العوامل الجغرافية المختلفة في مصائر الأمم، وتوجّه تاريخها اتجاهاً محتوماً ؟

لقد أجاب بعض الباحثين عن هذه الأسئلة بالايجاب.

وكان " فردريك راتسل " الألماني- الذي يعتبر الأب الأول للجغرافيا البشرية- في مقدمة هؤلاء.

لأنه اعتبر الأرض الأساس الأول للحياة الاجتماعية.

وقد زعم أن الانسان " فردي الطبع ". وقال: ان كل فرد من الأفراد الذين يؤلفون المجتمع يكون مستقلاً في حد ذاته- حاكما لنفسه بنفسه- وأما ارتباطه بالأفراد الآخرين فلا يتم إلا بواسطة الأرض. فالارض، هي " الرابطة الأساسية الوحيدة " التي تضمن " التماسك " بين أفراد الشعوب.

وهذه النظرية- نظرية اعتبار الأرض العامل الأساسي والرابطة الأصلية في تكوين المجتمعات البشرية-، كان من الطبيعي أن تدفع " راتسل " إلى مهاوي المغالاة في تقدير قوة العوامل الجغرافية، وتوصله إلى حد الاعتقاد بما يسمى " حتمية التأثيرات الجغرافية ".

وفعلاً ، عندما أراد أن يظهر شدة تأثير العوامل المذكورة في الشؤون البشرية الحالية والماضية- في المقالة التي نشرها في حولية علم الاجتماع والتي لخص فيها أهم آرائه الأساسية- قال بكل صراحة:

" إن الأرض، هي التي تنظم مقدرات الشعوب، بعنف أعمى ".

ب- ولكن الأبحاث العلمية والاجتماعية، لا تقر هذه الاراء، بوجه من الوجوه:

أولاً- قد ثبت من هذه الأبحاث العلمية أن الروابط الاجتماعية هي " روابط معنوية " في الدرجة الأولى. و- كما قال " اميل دوركهايم " (١٨٥٨- ١٩١٧) ان مشاعر الأفراد ترتبط بعضها ببعض ارتباطاً مباشراً، بروابط أصلية تماماً . روابط أصلية، لا تمت إلى الأرض بأية صلة ".

فلا مجال للشك في أن للروابط الاجتماعية جذوراً كثيرة وعميقة في النفس البشرية.

وأما الأرض، فلا تنضم إلى تلك الروابط ؛ إلا بعد تكوّن المجتمعات وتقدمها، فلا تكون أعم تلك الروابط، ولا أهمها.

لذلك: نستطيع أن نقول: ان اعتبار الأرض " الرابطة الأساسية " في تكوين المجتمع، يخالف أثبت حقائق علم الاجتماع.

ثانياً- يجب أن نلاحظ أن تأثير البيئة الطبيعية في الانسان لا يشبه تأثيرها في الجمادات والنباتات، وحتى ولا تأثيرها في سائر الحيوانات. لأن الانسان لا يبقى جامداً أمام تأثيرات الطبيعة، بل يسعى إلى مقاومتها ومغالبتها بصور ووسائل شتى . فإنه ينفعل ويتأثر من الطبيعة من ناحية، ويفعل ويؤثر فيها من ناحية أخرى. انه يسعى على الدوام للتخلص من تأثيراتها التي تضر به. وإذا لم يستطع التخلص منها تماماً ، فهو يتوصل إلى تخفيف وطأتها إلى حد كبير، حتى أنه ينجح في تسخيرالكثير من قواها لخدمة مصالحه وأغراضه، بأساليب مختلفة. ولذلك يختلف مبلغ تأثير الطبيعة في الأمور البشرية باختلاف درجة الحضارة. فيكون قوياً في الأقوام البدائية، ولكنه يضعف عند الأمم المتمدنة، ويزداد ضعفاً كلما تقدمت الأمم في طريق الحضارة. حتى أنه يمكن القول بأن تاريخ الحضارة، ليس إلا قصة كفاح الانسان ضد الطبيعة، ومنقبة نجاحه في استثمارها.

ج- لقد التزم بعض العلماء رأياً مماثلاً لرأي " راتسل " في أمر " حتمية " العوامل الجغرافية. ولكن معظم العلماء الباحثين- ولا سيما المعاصرين- فطنوا إلى ما في هذا الرأي من البعد عن الحقائق الثابتة ؛ وانكروا " الحتمية " determinisme في هذه الأمور ؛ وقالوا " ان البيئة الطبيعية تحدد الامكانيات، ولكنها لا تحتم الاحداث " وانتهوا بذلك إلى نوع من " الامكانية " possibilisme .

وقد عبر الاستاذ " فاللو Vallaux " من أساطين علماء الجغرافيا البشرية في فرنسا- عن هذا الرأي بالعبارة التالية:

" ان تأثير الطبيعة سلبي. لا ايجابي، انه يمنع حدوث بعض الأمور، ولكنه لا يحتم حدوث أي أمر من الأمور ".

لا شك في أن هذا الرأي صائب من حيث الأساس. ومع هذا، انه يحتاج إلى شيء من التقييد والتوضيح: لأن حدود الممكنات وغير الممكنات- في هذه الميادين- لم تكن مطلقة وثابتة، بل هي نسبية ومتحولة. إنها تتغيرتبعاً لسير الحضارة البشرية، وتقدم العلوم والفنون. فكثير من الأمور التي كانت تعتبر " غير ممكنة " في العصور السالفة، أصبحت ممكنة- وتحققت فعلاً- في الحالة الحاضرة. ولا شك في أن كثيرا من الأمور التي تبدو " غير ممكنة " في يوم من الأيام، قد تصبح " ممكنة " في يوم من الأيام، في المستقبل القريب أو البعيد.

وفضلاً عن ذلك، فإن قوة العزيمة، وشدة الجلد، وروح المثابرة التي ترافق وتوجه أعمال بعض الشعوب أيضاً تلعب دوراً هاماً في هذا المضمار.

إن قضية " تأثير البيئة الطبيعية في الشؤون الاجتماعية والأحداث التاريخية " يجب أن تبحث في ضوء جميع هذه الحقائق المختلفة.

د- وإذا أردنا أن نعرض أمثلة بارزة على الحقائق الآنفة الذكر عن أحوال البلاد العربية، نستطيع أن نذكر تاريخ تدمر والكويت.

من المعلوم أن " تدمر " كانت تمتاز بموقع جغرافي هام جداً، في العهود التي كانت المواصلات والمناقلات عبر بادية الشام تتم بقوافل الجمال. ولذلك صارت تدمر مدينة عظيمة، تزهو بهياكل كبيرة، وتزدان بتماثيل كثيرة ؛ وأصبحت عاصمة لدولة تسيطر على طرق تجارية عديدة. ولكن أهمية هذا الموقع زالت بتغير طرق المواصلات، وتطور وسائل المناقلات. ولذلك فقدت المدينة مكانتها، وتحولت -

بمرور الزمان- إلى أطلال لا يعيش في جوارها إلا عدد محدود من فلول العشائر، ولا يزورها إلا رواد الخرائب ومحبو الآثار.

أما الكويت، فبعكس ذلك، ما كانت تتمتع بأي موقع ممتاز، حتى أواخر القرن الماضي. موقعها، مناخها، لبعدها عن الأنهر والجبال.. كل أحوالها الطبيعية.. كان يجعل من المستحيل أن تنشأ فيها غيرقصبة ، يعيش فيها بعض الصيادين، ويؤمها بعض العشائر.

ولكن في أواخر القرن الماضي، اكتسب موقع الكويت- فجأة- أهمية خاصة: لأن مشروع خط بغداد الألماني، كان وضع على أساس إيصال السكة الحديدية حتى الكويت، على أن ينشأ هناك مرفأ اصطناعي، وقاعدة بحرية كبيرة. وتصبح الكويت بذلك منتهى للسكة الحديدية الطويلة التي سترتبط سواحل المحيط الأطلسي بشواطىء الخليج العربي- مارة من مدخل البوسفور؛ كما تصبح مبدأ خطوط بحرية عديدة، تتشعب إلى مختلف أنحاء البحر المحيط الهندي، في سواحل آسيا وافريقيا.

غير أن.. معارضة بريطانيا العظمى لهذا المشروع الألماني، وأحداث السياسة الدولية والحرب العالمية، حالت دون تحقق هذه الامكانيات.

ومع ذلك.. ان التطورات التي حدثت في ميادين العلوم والصنائع والحضارة العامة.. أوجدت في الكويت- بعد مدة وجيزة- إمكانيات جديدة : فالآبار التي حفرت لاستخراج النفط من تحت الطبقات الأرضية العميقة، والوسائل التي أعدت لنقل النفط من هناك إلى مختلف أقطار العالم- عبر البحار أو عبر الصحارى- غيرت احوال الكويت تغييراً جوهرياً ، وساعدت على نشوء مدينة كبيرة عصرية، محل تلك القصبة الصغيرة القديمة.

هـ- يلاحظ أن هذه التغييرات الكبيرة، هذه التغييرات التي أدت إلى اندراس تدمر، أو إلى ازدهار الكويت، لم تنجم عن تغير الأحوال الطبيعية، إنما نجمت عن تغير الأحوال البشرية.

وقد يقال: إن ذلك لا ينفي تأثير الطبيعة؟ إذ لأ يمكن لأحد أن ينكر- مثلاً- أن الفضل في ازدهار الكويت يعود إلى النفط.

ولكن، أمام هذا القول، يجب أن لا يغرب عن البال أن النفط المذكور كان موجوداً تحت طبقات الأراضي الكويتية، منذ مئات الآلاف من السنين. إنه لم يخرج إلى سطح الأرض من تلقاء ذاته، ولم يتول تحريك المكائن بنفسه.. بل خرج من الأرض، ثم تحول إلى الشكل الذي يحرك المكائن، بفضل أعمال الانسان وجهوده.

فإن الانسان، بعد أن اختبر خواص المواد واكتشف قوانين الطبيعة، بفضل الأبحاث والتجارب التي تلاحقت منذ قرون عديدة في مختلف بلاد العالم، اف القدرة على تسخير القوى والمواد الطبيعية لخدمته. انه استطاع أن يكتشف مخازن النفط الكائنة في أعماق الطبقات الأرضية، وأن يخرج النفط المذكور إلى سطح الأرض، مع الغازات التي ترافقه ؛ ثم، أن يعالجه بالأساليب والوسائل والمكائن التي تضمن انطلاق القوى الكامنة فيه من مكمنها، في الأوقات التي يريدها، في الأمكنة التي يختارها، وفي المقادير التي تقتضيها مصالحه المختلفة.

ولذلك نستطيع أن نقول: ان الطبيعة هنا أصبحت " متأثرة "، أكثر مما كانت "مؤثرة".

فالتأثير الفعلي الحقيقي، كان من الانسان، لا من الطبيعة.

وإذا أردنا المزيد من الدقة في التعبير، استطعنا أن نقول : نحن هنا أمام " تفاعل " يقوم بين الانسان وبين الطبيعة، وينتهي إلى تسخير قوى الطبيعة لخدمة حاجات الانسان بإراداته.

-٢-

أ- ان المثالين اللذين ذكرتهما آنفاً- لكونهما من البلاد العربية- ليسا من الأمور الشاذة أو النادرة، بل لهما أمثال كثيرة وكثيرة جداً، في البلاد العربية وفي غير البلاد العربية، في تواريخ المدن وفي تواريخ الأقطار.

ولزيادة التأكيد على صحة ما قلته آنفاً ، رأيت أن أعرض فيما يلي، بعض الأمثلة البليغة الأخرى.

ب- كل من يلقي نظرة عامة على أحوال انكلترا الحالية، يجد تطابقاً شديداً بين أحوالها السياسية والاقتصادية وبين خصائصها الجغرافية والجيولوجية.

إن ملاحظة هذا التطابق، هي التي حملت الكثيرين من المؤلفين على اعتبار البلاد المذكورة من أبرز الأمثلة على تأثير الطبيعة في الأحوال البشرية.

يقول هؤلاء: ان انكلترا صارت دولة بحرية عظيمة ؛ لأن شواطئها وخلجانها، وأنهارها وأحوال البحار المحيطة بها... تجمع أحسن وأكمل الشروط المساعدة لأعمال الملاحة والتجارة.. كما أنها صارت دولة صناعية قوية، لأن طبقاتها الأرضية غنية بالمعادن الضرورية لازدهار أرقى الصناعات.

ولكن.. يجب أن لا يغرب عن البال: أن بريطانيا العظمى لم تصبح دولة بحرية إلا منذ بضعة قرون ؛ كما أنها لم تصبح دولة الصناعات الهامة إلا منذ قرنين.

انها كانت بلاد المرعى والزراعة بكل معنى الكلمة. وكانت محرومة حتى من الوسائل اللازمة لنسج الصوف الذي تنتجه أغنامها الكثيرة. فكانت تصدر الصوف إلى بلاد الفلاندر، لينسج هناك، ثم يعاد منسوجاً إلى بلادها الأصلية، أو يرسل إلى سائر البلاد. إنها كانت محرومة حتى من السفن التجارية اللازمة لتصدير الصوف وتوريد المنسوجات. فإن هذه النقليات كانت تتم بواسطة سفن هولندية.

إن كل ما كان في جزيرة بريطانيا- بسواحلها وخلجانها وأنهارها وجبالها- من الشروط المساعدة للملاحظة لم يكف لجعل الانكليز بحارة ؛ ولم يضمن جعل انكلترا دولة بحرية، قبل القرن الخامس عشر.

ان اسبانيا، والبرتغال، وهولندا، وحتى فرنسا. قد سبقت انكلترا في ميادين الملاحة والتجارة والاستعمار. وظل سكان الجزيرة- مدة قرون وقرون- شبه منطوين على أنفسهم، لا يستفيدون من البحار المحيطة بجزيرتهم، فضلا عن بحار العالم الأخرى.

وأما فلزات المعادن والفحم المطمورة تحت طبقات أرضهم، فلم تصبح موارد ثروة لهم- إلا منذ مدة لا تتجاوز كثيراً قرنين من الزمان.

ان هذه الحقائق يجب أن تبقى نصب الأعين، عند التفكير في مسألة " حتمية " أو " عدم حتمية " التأثيرات الجغرافية في الشؤون البشرية والوقائع التاريخية:

إن انكلترا، التي أصبحت- في القرن الماضي- صاحبة أضخم الأساطيل التجارية والحربية في العالم.

انكلترا، التي صارت تحكم بلاداً شاسعة في القارات الخمس، حتى صار يقال- بحق- أن الشمس لاتغيب عن امبراطوريتها أبداً .

انكلترا هذه. كانت قبل ذلك قابعة في جزيرتها، ومحرومة من أساطيل تضاهي أساطيل البرتغال أو هولندا الصغيرة، على الرغم من كون البلدين المذكورين محرومين من مزايا الجزر التي تتمتع بها بريطانيا.

وانكلترا التي اشتهرت في عصرنا هذا.. وفي العصر الماضي بجودة منسوجاتها، حتى صارت تغزو بها أسواق العالم... كانت قبل بضعة قرون تستورد من الخارج المنسوجات اللازمة لإكساء سكانها. وخلاصة القول: إن انكلترا كانت محرومة من الأساطيل، على الرغم من وفرة جميع المواد الأولية اللازمة لها **[تفاصيل ذلك في كتابي : دفاع عن العروبة ، ص ٥٤- ٦١ ] .**

كل ذلك يدل دلالة قاطعة على أن العوامل الجغرافية ليست محتمة المفعول. بل ان في حياة الأمم، عوامل أهم وأفعل بكثيرمن العوامل الجغرافية.

ج- وأما " هولندا "، فتكوّن نموذجاً معكوساً لانكلترا: بلاد حرمتها الطبيعة من كل الموارد والمواهب. ومع ذلك، قد استطاع سكانها أن يؤسسوا دولة بحرية قوية، لعبت في تاريخ الحضارة دوراً مرموقاً .

بلاد.. تتألف من أراض منخفضة، تقطعها الخلجان والبحيرات والمستنقعات. سواحلها تتعرض- على الدوام- إلى هجمات الأمواج التي تهيجها عواصف المحيط الأطلسي، وتتكسر- من وقت لآخر- بتأثير تلك الهجمات، فلا تستقر على حال. ولكن سكانها استطاعوا أن يحولوا تلك الأراضي إلى حقول خصبة وحدائق غناء، تمتد بين مدن جميلة، ومرافيء عظيمة، وذلك عن طريق ردم البحر والبحيرات الواسعة، وبناء السدود الطويلة والمحكمة التي تقاوم أعنف هجمات البحر. وأما الأتربة والأحجار والأخشاب التي كانوا يحتاجون إليها، لردم البحيرات، وبناء السدود، وإنشاء المدن والموانيء.. فإنهم نقلوها من مسافات بعيدة. ومن الثابت- مثلاً- أنهم جلبوا الأحجار من جبال الاردن، والبلاد السكندينافية.. كما أنهم اشتروا الغابات من ألمانيا، لينقلوا أخشابها وأحطابها إلى بلادهم ليستعملوها في بناء أسس المدن والسدود.

وأصبح كل شيء هناك، من صنع الانسان.

إنهم صاروا يقولون- بحق- " ان الله خلق البحار، وأما السواحل فنحن أوجدناها ".

ولكن، يحق لهم أن يقولوا أكثر من ذلك ؛ لأن ليس السواحل وحدها، بل معظم الأراضي أيضاً كانت من صنع أيديهم. وقد صدق من قال: ان هولندا وليدة روح العمل بجلد ومثابرة، وإن أراضيها مجبولة بالعرق والدموع، بقدر ما هي مكونة من الرمل والطين.

د- طبيعي أن بناء البلاد على المنوال الذي ذكرته آنفاً ، كان يتطلب إنفاق شيء غير قليل من المال. والهولنديون استطاعوا أن يحصلوا على الأموال المذكورة أيضاً عن طريق العمل المتواصل:

أولاً ، عن طريق صيد الأسماك، التي كانوا أتقنوا تمليحها وضمنوا تسويقها، ثم عن طريق الملاحة، التي برعوا فيها، حتى استطاعوا أن يحتكروها في بعض البحار. وفي الأخير، عن طريق استثمار واستغلال الجزر الأندونيسية، التي استطاعوا أن يستملكوها، على الرغم من بعدها الشاسع عن بلادهم الأصلية.

وبناء على ذكر الجزر الأندونيسية، يجدر بنا أن نسجل الأمر التالي أيضا:

بديهي، أن ما من عامل جغرافي يستطيع أن يفسر ويعلل استملاك تلك الجزر الكثيرة والكبيرة- التي تمتد بين المحيط الهندي والمحيط الهادي، من قبل هولندا الصغيرة، القابعة في شمال غرب أوروبا، على ساحل المحيط الأطلسي.

هـ- ان احوال " بلاد العالم الجديد "- التي كانت بقيت في معزل عن العالم القديم- أيضاً تساعدعلى إظهار "العلاقة بين الطبيعة وبين الانسان "على وجهها الصحيح.

من المعلوم أن أحوال تلك البلاد- أي استراليا وأمريكا، ولا سيما أمريكا الشمالية- تبدلت تبدلاً كلياً منذ أوائل القرن السادس عشر، - وعلى الأخص: خلال القرن الماضي- ؛ لقد تغير فيها كل شيء، انتشر فيها صنوف من الحيوانات وأنواع من النباتات، التي لا تمت بأية صلة إلى مجموعات نباتاتها وحيواناتها الأصلية. لقد هاجر إليها واستوطنها جماعات كبيرة ومختلفة من سكان، " العالم القديم "، وتكوّن فيها شعوب جديدة، ودول عديدة، وصل بعضها إلى أقصى مراقي القوة والرفاه والازدهار، في ميادين الزراعة والتجارة والصناعة والعمران والعلوم والآداب. وكل ذلك أدّى إلى تغير مظاهر البلاد ومعالمها تغيراً هائلاً .

وخلاصة القول: تكوّن هناك " عالم جديد "، بكل معنى الكلمة.

ومما يجب ملاحظته أن هذه التغيرات لم تحدث من جراء تغير" طبيعة " تلك البلاد، بل حدثت من جراء تغيرأحوال الشعوب التي تعيش عليها وتعمل فيها.

قد يقال: ولكن هذه الشعوب لم تتقدم هذا التقدم الخارق ، إلا بفضل الثروة الطبيعية التي وجدتها في تلك البلاد. غير أنه يجب أن يلاحظ- مقابل هذا القول- أن السكان القدماء ما كانوا استفادوا من تلك الثروة الطبيعية، طوال القرون التي مضت قبل وصول السكان الجدد إليها. ونستطيع أن نقول: إن تلك المواد لم تكتسب قيمتها الحالية، فلم تصبح جديرة بالتسمية باسم " الثروة "إلا بفضل أعمال وجهود هؤلاء.

وقد قال " أوغبرن " و " بنمكوف "- من مشاهير أساتذة علم الاجتماع في أمريكا- " أن وجود المواد لا يستلزم استعمالها " ولا شك في أن هذا القول صائب وذو دلالة هامة : إن الطبيعة تحتوي أنواعاً كثيرة من المواد، وكميات هائلة من القوى الكامنة. ولكنها لا تعلّم الانسان كيفية الاستفادة من تلك المواد ومن تلك القوى الكامنة. ولذلك ، لا تصبح هذه المواد والقوى مفيدة وفاعلة ، إلا بفضل عمل الانسان وجهوده المستندة إلى العلم والبحث والتجربة.

**خاتمة البحث**

يتبين من كل ما تقدم : ان قول القائلين بأن " الجغرافيا توجه التاريخ "، أو " البيئة الطبيعية تتحكم في مصائر الشعوب "، قول خاطىء، لا يستند إلى أي أساس علمي.

ولذلك، عندما نريد أن نبين " علاقة الانسان بالبيئة الطبيعية "، يجدر بنا أن نتكلم عن " التفاعل بين الانسان وبين البيئة الطبيعية "، عوضاً عن الكلام عن " تأثير البيئة الطبيعية في الانسان ".

**الوحدة القومية ووحدة الصراع**

إن الوقائع والانقلابات السياسية التي توالت منذ قرن ونصف قرن، والأبحاث الاجتماعية التي تناولت تلك الوقائع والانقلابات طول هذه المدة، دلت دلالة قاطعة على :

ان العناصر الأساسية في تكوين القومية هي : وحدة اللغة ووحدة التاريخ، وما ينتج عن ذلك من مشاركة في المشاعر والمنازع، و في الآلام والآمال .

ولا شك في أن جميع الناطقين بالضاد، جميع أبناء البلاد العربية، تتوفر فيهم هذه العناصر والمقومات الأساسية، ولذلك فإنهم يكونون امة واحدة .

وأما الدول والدويلات، والإمارات والمشيخات العديدة التي انقسمت اليها البلاد المذكورة، والحدود التي فصلت بين هذه الاقسام المختلفة، فليست الا عوارض طارئة، نتجت عن مصالح السياسة الاستعمارية ، فلا بد من أن تتهدم وتتلاشى أمام تيار العروبة الجارف.

ومن دواعي الغبطة والابتهاج، ان هذه الحقائق الهامة صارت تنتشر خلال السنوات الاخيرة، بسرعة كبيرة، في مختلف الاقطار العربية، وأخذت تتغلغل في نفوس مختلف طبقات شعوبها، وتتحول إلى " ايمان بوحدة الامة العربية ، على الرغم من تعدد دولها ".

فيحق لنا أن نبتهج اشد الابتهاج بتطور فكرة القومية العربية، بهذه الصورة، إلى عقيدة سياسية واجتماعية، تترسخ في النفوس، وتتغلب فيها على النزعات الاقليمية الناجمة عن الظروف السياسية الماضية.

ولكن... مما يؤسف له كل الأسف، أن بعض الكتاب لا يتورعون عن التشكيك في صحة هذه الاتجاهات القومية، بناء على ملاحظات ارتجالية .

فبعضهم يستخف بالفكرة القومية بذاتها... وبعضهم يحاول زعزعة الاسس التي تقوم عليها... وبعضهم يطالب بتغيير اتجاهها.

فيجدر بنا أن نقف قليلاً عند الأهم من هذه الآراء المعارضة، ونناقشها في ضوء الحقائق التاريخية والاجتماعية.

يقولون: إن البشرية قد اجتازت مرحلة " التنظيم القومي "، ووصلت إلى مرحلة " التكتل الاممي".

يقول ذلك عدد كبير من الكتاب والمفكرين في أوروبا وامريكا، ويأخذ عنهم هذا القول- على علاته- بعض الكتاب في البلاد العربية ؛ ويتخذونه مقدمة يتوصلون منها إلى الحكم التالي :

" لا يليق بنا، ونحن نعيش في القرن العشرين ، أن نواصل السير وراء الفكرة القومية".

ولكن، أرى أنه يجب علينا أن نلاحظ :

ان الامم الاوروبية، إذا كانت وصلت- حقيقة- إلى مرحلة التكتل الاممي ، انما وصلتها كل واحدة منها في حالة " دولة قومية، مستقلة وموحدة " ؛ ولم تتخل عن شخصيتها المتميزة لغيرها، في أوضاعها الجديدة. فيجب علينا، نحن أيضاً ، أن نحقق وحدتنا القومية، لكي نستطيع أن نحافظ على شخصيتنا، في التكتلات الاممية التي يتكلمون عنها.

اني كنت شبهت قول القائلين بأن عصر القوميات قد انتهى نظراً لانتهائة في اوروبا، بقول من يذهب إلى أن موسم الامطار قد انتهى من العالم ، نظراً لانتهائه في بعض الاقطار من الكرة الارضية... أو: بقول من يظن أن موسم نضوج الاثمار قد فات، نظراً لانتهاء نضوج الأثمار في بعض الأشجار التي يشاهدها، متوهماً أن كل انواع الأشجار تنضج في وقت واحد، في جميع الاشجار، في جميع اقطار العالم .

إني اتمسك بهذا التشبيه، واكرره، الان ايضاً . لأني لا ارى مجالاً للشك في أن شعور أمة من الامم بذاتيتها، انما يتم عندما تصل الامة إلى درجة من النضوج السياسي والاجتماعي . وهو، لهذا السبب لا يخلو من الشبه بحادث " البلوغ " عند بني الانسان، أو التزهر والإثمار عند انواع النباتات.

وغني عن البيان أن ذلك لا يحدث في جميع الشعوب وفي جميع الانواع في وقت واحد ؛ بل أنه يتقدم عند البعض ويتأخر عند البعض الآخر. وذلك تحت تأثير سلسلة طويلة من العوامل الداخلية والخارجية.

ويجب أن لا ننسى أن انتصار الفكرة القومية في البلاد الاوروبية نفسها، انما تم في تواريخ مختلفة ومتباعدة... فان الوحدة اليوغوسلافية- مثلاً - لم تتحقق الا بعد مرور ستة عقود من السنين على تحقق الوحدة الايطالية. كما أن استقلال ايرلندا عن بريطانيا العظمى قد تأخر عن استقلال اليونان عن السلطة العثمانية.. مدة لا تقل عن القرن الكامل.

وعلى كل حال، يجب أن نعلم العلم اليقين، أن اليقظة القومية ليست من الامور التي تحدث وتتحقق في عصر معين أو موسم محدد.

وقد قال بعض الكتاب: " إن الفكرة القومية التقليدية، المستندة إلى اللغة والتاريخ، انما هي من النظريات البالية التي تعود إلى القرن الماضي . واما الاساس الحقيقي للقومية بوجه عام، وللقومية العربية بوجه خاص، فهو وحدة الصراع ". وبتعبيرآخر: " هو الحاجة إلى توحيد العمل للتغلب على العدو المشترك الرابض أمام الجميع ".

لا شك في أن " الوحدة في الصراع، في سبيل القضاء على العدو المشترك " مما يزيد شعوب الامة وأفرادها تماسكاً على تماسكها. ولكن ذلك لا يمكن أن يعتبر أساساً لتكوين القومية، بوجه من الوجوه.

لأن " الصراع ضد العدو المشترك " قد يجمع بين دول وقوميات مختلفة. وغني عن البيان أن التجمع الذي يتم على هذا الاساس مهما كان شكله ومداه- لا يمكن أن يغالب الزمان، بل يزول بزوال دوافع الصراع المذكور، أو بتغير اتجاهاته وأهدافه.

والتاريخ يعطينا على ذلك امثلة لا تعد ولا تحصى، وربما كان أقرب تلك الأمثلة وأبلغها ما حدث خلال الحرب العالمية الاخيرة:

مما لا يخفى على احد، أن الكفاح ضد المانيا النازية استلزم اتفاق امريكا وانكلترا مع روسيا السوفياتية، وحمل الدول المتحالفة المذكورة على العمل المشترك، للتغلب على العدو المشترك، طوال سني الحرب. ولكن... عندما تم الانتصار على المانيا، فلم يبق عدو مشترك أمام المتحالفين، انتهى التحالف الذي كان قد تولد من " وحدة الصراع " وترك محله إلى عداء أشد من العداء السابق للتحالف، وخصام اكثر ضراوة مما كان قائما قبل عهد " وحدة الصراع ".

وغني عن البيان، أن الوحدة التي تهدف اليها فكرة " القومية العربية "... الوحدة التي تنجم " عن وحدة اللغة ووحدة التاريخ، وما ينتج عن ذلك من وحدة المشاعر والمنازع، ووحدة الآمال والالام.. " لا يمكن أن تتعرض إلى مثل هذه التقلبات. بل تكون " وحدة طبيعية " تستمر مدى الحياة ، لانها تكون- في حقيقة الامر- مظهراً من مظاهر حياة الامة نفسها.

ولا بد لي من التصريح بأني لم اقصد بقولي هذا، استبعاد أمر " وحدة الصراع " من ميدان السياسة العربية. بل بعكس ذلك أنا اقول بوجوب التفاهم والتعاون والتحالف مع الدول والشعوب التي تصارع- مثلنا- الاستعمار وآثار الاستعمار.

ولكني أفصل هذه القضية عن قضية " الوحدة القومية " فصلاً تاماً .

واكرر القول بأن " الوحدة العربية " التي نتوق اليها، والتي ندعو إلى المثابرة على العمل لتحقيقها، لا تعني " توحيد الاعمال والمساعي في ميادين محدودة لغايات معينة "، بل تعني: " توحيد الاعمال والمساعي في جميع الميادين " ؛ وبتعبير أقصر واشمل: انها تعني " توحيد الحياة القومية " بكل ما في هذه الكلمة من معان سامية.

- نشرت في العربي ، العدد ٣ ( شباط / فبراير ١٩٥٩ )

# عصر القوميات

## في أوروبا و في آسيا وافريقيا

لقد اتفقت كلمة المؤرخين والباحثين على تسمية القرن التاسع عشر باسم " عصر القوميات " .

وانا لا اعترض على هذه التسمية ، من حيث الأساس ، غير أني اعتقد أن الدقة العلمية تحتم علينا ان نقيد ذلك بقيد صغير ، ولكنه مهم ، فنقول : " عصر القوميات في أوروبا " .

لأن القرن المذكور- الذي امتد بين انتهاء الحرب العالمية الأولى أو بين معاهدات فينا وتوابعها وبين معاهدات فرساي ولواحقها-، اذا كان عصر " انتصار القوميات " بالنسبة الى البلاد الأوروبية، فانه كان عصر شيء آخر بالنسبة إلى البلاد الأسيوية والإفريقية.. إنه كان عصر استفحال الاستعمار.

حقا، إن القرن المذكور كان " عصر انتصار القوميات، في البلاد الأوروبية " بكل معنى الكلمة.

فان خارطة أوروبا السياسية تغيرت خلال القرن المذكور تغيرا أساسيا في اتجاه ثابت عام : هو تكوين دول قومية في مختلف أنحاء القارة الأوروبية.

خلال هذا القرن :

توحدت ألمانيا، فكونت دولة عظيمة قامت مقام الدول والدويلات الالمانية الكثيرة .

وتوحدت إيطاليا، بعد أن حررت جميع أقطارها من الحكم الاجنبي، ومن حكم الملوك والأمراء الإقليميين.

واستقلت بولونيا، ووحدت أقطارها الثلاثة التي كانت موزعة بين روسيا وألمانيا والنمسا.

وتكونت دولة يوغسلافيا، ووحدت أقطارها ا لتى كانت موزعة بين إمبراطورية النمسا وبين السلطنة العثمانية.

وفضلا عن ذلك كله، قد انفصلت فنلندا عن روسيا، والنرويج عن السويد ، وبلجيكا عن هولندا.

كما تكونت عدة دول جديدة: اليونان، وألبانيا، ورومانيا، و بلغاريا، وتشيكوسلوفاكيا..

ومقابل ذلك انقرضت إمبراطورية النمسا والمجر، وتوزعت البلاد التي كانت تابعة لها، بين سبع دول مختلفة.

كما انقرضت السلطنة العثمانية، وتوزعت بلادها الأوروبية بين خمس دول مختلفة فضلا عن جزئها الذي بقي تابعا للجمهورية التركية، التي خلفت السلطنة المذكورة .

إن كل هذه التبدلات والتطورات العظيمة، إنما حدثت وفق مقتضيات " مبدأ القوميات " على أساس استقلال الأمم عن الدول الأجنبية التي كانت تحكمها واتحاد الأمم التي كانت مجزأة وموزعة بين دول عديدة، وبتعبير أقصر: على اساس تكوين " الدول القومية ".

وغني عن البيان أن هذه التطورات والتقلبات السياسية الخطيرة، لم تحدث كلها مرة واحدة، وبصورة فجائية، بل حدثت في تواريخ مختلفة، وبعد سلسلة طويلة من الأحداث الفكرية والاقتصادية والاجتماعية، ومن الثورات والحروب الداخلية والخارجية ، فالوحدة اليوغسلافية مثلا، لم تتحقق إلا بعد مرور ستة عقود من السنين على تحقق الوحدة الإيطالية، فضلا عن أنها قطعت مراحل عديدة منذ نيل " صربية " و " الجبل الأسود " الحكم الذاتي ، فالاستقلال عن الدولة العثمانية إلى حين انفصال سائر الاقطار اليوغوسلافية عن الامبراطورية النمساوية المجرية .

كما أن استقلال إرلنده عن بريطانيا العظمى ، تأخر عن استقلال اليونان مدة تناهز القرن الكامل ، فضلا عن أنه لم يتم إلا بفضل سلسلة ثورات توالت مدة لا تنقص عن ذلك .

ومما يجب أن لا يغرب عن البال أن فكرة " حقوق القوميات " قوبلت بمعارضة شديدة، في أوروبا نفسها، ليس من قبل رجال السياسة فحسب، بل من قبل الكثيرين من رجال الفكر والقلم أيضا.

لأن هؤلاء كثيرا ما كانوا يتأثرون بسياسة الدول التي ينتسبون اليها، فينظرون إلى قضايا القوميات بمنظار مصالحهم الوطنية، ولذلك كثيرا ماكانوا يسلمون بحقوق القوميات إلى بعض الأمم ، وينكرونها بالنسبة الى بعضها الآخر، كما كانوا يتفننون في اختراع " المبررات " لآرائهم ومواقفهم هذه ، تارة باسم " المصالح الدولية "، وطورا باسم " المثل الانسانية السامية ".

مثلا، " أرنست رينان " الشهير، صرح- في كتابه " مستقبل العالم "- بأنه يؤيد مبدأ القوميات، عندما تكون الأمة المحكومة ارقى من الأمة التي تحكمها، ولكنه لا يرى رأي الذين يلتزمون هذا المبدأ على الاطلاق، لأنه يعتقد بأن ما يتطلبه " تقدم البشرية وتكاملها "، يجب أن يسمو فوق جميع الاعتبارات في هذا المضمار.

وبديهي، أنه كان يعني بذلك : أن الأمم المحكومة لا تستحق الاستقلال، اذا كانت أقل تقدما من الأمم التي تحكمها.

ان الكتاب والمفكرين الذين كانوا ينظرون الى امور القوميات بمثل هذه النظرات المتحيزة، كانوا كثيرين في مختلف البلاد الأوروبية.

مثلا: " كارل ماركس " وأصحابه كانوا يؤيدون ثورة البولونيين على روسيا، ولكنهم كانوا يستنكرون ثورة المجريين على النمسا، وحجتهم في ذلك كانت قولهم : إن البولونيين أكثر تقدما من الروس، ولكن المجريين كانوا اشد رجعية من النمساويين .

والمؤرخ المفكر الأسباني المشهور " دي مارغال "، أيضا لم يسلم بحق المجريين في الثورة على النمسا، في الوقت الذي كان يعتبر ثورة البولونيين على روسيا " ثورة مقدسة " . والسبب الذي حمله على هذا التمييز، كان نظريته المتعلقة بالنظم الفيدرالية.

وأما " الحقوق القومية " للشعوب الأسيوية والإفريقية، فمن الطبيعي أنه ما كان يفكربها أحد من كتاب القرن التاسع عشر، في أوروبا .

لأن جميع الكتاب والمفكرين كانوا يزعمون – في ذلك الزمان - أن الشعوب المذكورة ليست متأخرة فحسب، بل محرومة من قابلية التقدم ايضا!

ان ابرز وأغرب الأمثلة على التمييز بين " الأوروبيين " و " غير الأوروبيين " في امر " الحقوق القومية " صادفتها في كتاب مطبوع باللغة الفرنسية سنة ١٨٦٠، في " مبدأ القوميات ".

كان المؤلف " ماكسيمين دولوش " من اشد المتحمسين للمبدأ المذكور، انه كان في رومانيا سنة ١٨٥٧، حين اندفع اهالي الإمارتين- مولدافيا وفلاخيا- يتنادون للاتحاد، ويعملون على تحقيقه بكل حماس، على الرغم من مخالفة الدول العظمى لذلك، وشاهد بعينيه مظاهر ذلك التيار القومي الشديد.

كما انه كان في ايطاليا، سنة ١٨٥٩ عندما اندفع الايطاليون يصوتون للوحدة بحماس منقطع النظير، وشاهد بمرأى عينيه كيف كان الناس يؤلفون قوافل طويلة، يشترك فيها الشيوخ والشبان، الرجال والنساء، من اهالي المدن والأرياف يصفقون للوحدة بسرور وابتهاج.

ولذلك نرى المؤلف يسجل في كتابه مناظر هذا الاندفاع ومناقبه بكل تقدير واعجاب، ويدافع عن مبدأ القوميات عن خبرة وايمان، حتى انه يقول بوجوب تحقيق الوحدة الألمانية ايضا، مخالفا في ذلك معظم ساسة فرنسا وكتابها..

ومع كل ذلك، نراه في نفس الكتاب، عندما يذكر شعوب افريقيا الشمالية بمناسبة من المناسبات، يقول بوجوب وضعها تحت حكم دول جنوب اوروبا.... وبعد ان يقسم المغرب الأقصى والأوسط والأدنى- مع ليبيا- بين اسبانيا وفرنسا وايطاليا، ينتهي الى القول بوجوب وضع مصر تحت حكم اليونان!...

ومن الغريب ان الكاتب الالماني المعروف " ماكس نورداو " ايضا اشترك في هذا النوع من التفكير، على الرغم من اشتهاره بالجرأة في الرأي، وعلى الرغم من تحمسه لمبدأ القوميات تحمسا منقطع النظير.

فنراه في البحث الذي نشره عن " القومية " يهزأ بأسلوب لاذع عنيف، بكل من لا يقدر أهمية الفكرة القومية حق قدرها، فيقول :

" ان الذين فقدوا البصيرة، وحدهم يزعمون بان الفكرة القومية، هي من الآراء الطارئة، التي لن تلبث ان تندثر وتتلاشى، كما تندثر " الموضات " وتتلاشى "

ثم يؤكد ماكس نورادو ايمانه بالقضايا القومية بهذه العبارات الحاسمة :

" ان الوعي القومي، من الأمور التي تحدث بالضرورة وبصورة طبيعية، في مرحلة معينة من التطور البشري، في الأفراد و في الجماعات. ".

" إنه من نوع الظواهر والحوادث الطبيعية التي لا يمكن منعها، حتى ولا تأخيرها.... وذلك مثل حوادث المد والجزر في البحر، وحرارة الشمس في موسم الصيف ".

ومع ذلك نراه يقول، في الفصل الذي كتبه عن " مستقبل البشر ":

" إن بلاد شمال إفريقيا ستكون مهجرا للشعوب الأوروبية، واما سكانها الحاليون، فسينزحون الى الجنوب، الى البلاد الاستوائية، الى ان يفنوا هناك "!..

ولا غرابة والحالة هذه، اذا صار القرن التاسع عشر، عصر " انتصار القوميات " في اوروبا، وفي الوقت نفسه " عصر استفحال الاستعمار " في آسيا وأفريقيا .

واذا تعمقنا في البحث قليلا، توصلنا الى حقيقة هامة اخرى، وعلمنا : أن انتصار الفكرة القومية في أوروبا، كان من جملة الأسباب التي أدت إلى استفحال الاستعمار في آسيا وأفريقيا .

ذلك لأن انتصار مبدأ القوميات في أوروبا، لم يترك امام أية دولة من الدول، أي مجال للتوسع في القارة المذكورة نفسها، لأن جميع دولها أصبحت قومية، ولأن حدود تلك الدول تقررت وفقا لمقتضيات مبدأ القوميات الى ، أقصى حدود الإمكان .

ولذلك اضطرت الدول الطامحة، الى تحويل أنظار توسعها خارج القارة الأوروبية .

ومن المعلوم أن الاستعمار الاوروبي للقارة الأمريكية كان قد بلغ مداه قبل القرن المذكور، وتتالت الحركات الاستقلالية في مختلف اقطارها، وفي الأخير اعلن " مونرو " مبدأ : " أمريكا للأمريكيين"، فلم يترك للدول الأوروبية مجالا لتوسع جديد في تلك القارة ايضا.

ولهذه الأسباب كلها، توجهت أطماع التوسع بكليتها نحو القارتين الآسيوية والإفريقية...

وهذا العامل، بانضمامه الى العوامل الاقتصادية المعروفة، دفع الدول الأوروبية الى التهافت على استعمار تلك البلاد، بسرعة وبشراهة.

ولذلك شهد العالم هذا الحادث الغريب:

في الوقت الذي كانت خارطة اوروبا السياسية تتغير وتتطور وفق ما يرتضيه مبدأ " حقوق القوميات " صارت خارطة اسيا وأفريقيا تتخطط وتتكون وتنقسم، وفق مصالح المستعمرين ومساوماتهم المعقدة ، دون أدنى التفات إلى الاعتبارات القومية .

وهذا هو الذي جعل القرن التاسع عشر، عصر " انتصار القوميات " من جهة، وعصر " استفحال الاستعمار " من جهة اخرى .

ولكن.... من الطبيعى ان هذه الاحوال ماكان يمكن ان تدوم الى الابد .

بل كان من الطبيعي، أن تستيقظ الشعوب الآسيوية والافريقية من سباتها، الواحدة بعد الأخرى، وان تتزود بأسباب الحضارة العصرية من ناحية، وتعي حقوقها القومية وتطالب بها، وتثور على مستعمريها من ناحية اخرى .

من المعلوم ان البعض من الشعوب المذكورة استطاعت ان تقطع شوطا كبيرا في هذا السبيل، منذ بداية القرن الحالي، ولا سيما منذ نهاية الحرب العالمية الأخيرة، ولكن لا يزال امام معظمها طريق طويل وشاق، محفوف بضروب من الموانع والعراقيل، من الأشواك والادغال، من المهاوي والوديان.

ومع كل ذلك، لاشك ان الفكرة القومية ستتغلب في آخر الامر، على جميع هذه الموانع والعراقيل... وستنتصر في البلاد المذكورة كما انتصرت من قبل في القارة الأوروبية.

ولهذا السبب، سيكون القرن الحالي : " عصر انتصار القوميات " في القارتين الاسيوية والافريقية، و عصر انهيار و تلاشي الاستعمار في جميع القارات .

ولاشك في أن الأمة العربية ستكون أكثر المستفيدين من ذلك .

لأنها في ـ الحالة الحاضرة ـ أشد المتضررين من الاستعمار ومن رواسبه ومخلفاته الخطيرة.

*******

## أمنية الوحدة

إن فكرة " القومية العربية " تعني : الإيمان بوحدة الأمة العربية ، وتتطلب العمل بما يستوجبه هذا الإيمان، وذلك بالتفاني في خدمة هذه الأمة ، للمساهمة في ضمان تقدمها، ووصولها إلى أوج الرفعة والقوة والكمال، في ميادين العلم والثقافة والاقتصاد والاجتماع والسياسة.

فعلى كل واحد منا أن يؤمن أصدق الإيمان، بأن الوطن العربي يمتد من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي وجبال زاغروس، ويشمل جميع البلاد التي يتكلم أهاليها باللغة العربية. وأما الدول والدويلات القائمة في هذه البلاد فإنها وليدة المناورات والمساومات والمقاسمات التي قامت بين الدول المستعمرة، خلال حكمها لها وسيطرتها عليها. والحدود التي تفصل هذه الوحدات السياسية بعضها عن بعض- في الحالة الحاضرة - ليست إلا الخطوط التي رسمتها والسدود التي شيدتها الدول المستعمرة، حين اتفقت على تحديد مناطق نفوذها أولاً ، وحين اقتسمتها اقتسام الغنائم أخيراً .

فيترتب على كل عربي أن يعلم ذلك العلم اليقين، فيسعى إلى تطهير نفسه من رواسب النزعات الاقليمية التي ولدتها وخلفتها عهود الانحطاط والاستعمار، وعليه أن ينظر إلى تلك الحدود نظرته إلى الأسلاك الشائكة التي تحيط بالمعتقلات، فيجعل أمنيته القصوى، ومثله الاعلى : إزالة تلك الحدود من الأراضي ومن النفوس، لتوحيد البلاد العربية، تحت ظلال راية العروبة الشاملة.

أعرف أن هنا وهناك .. جماعات من ضعيفي الإيمان يقولون : "هذا محال ... هذه البلاد المترامية الأطراف لا يمكن أن تتوحد تحت راية واحدة ".

وأما أنا فأدعو هؤلاء إلى التأمل في تقسيمات العالم السياسية ، في الحالة الحاضرة.

فإن راية واحدة ترفرف على بلاد شاسعة تمتد بين المحيط الأطلسي والمحيط الهادي في امريكا الشمالية، وراية واحدة أخرى تظلل بلاداً مترامية الأطراف، تمتد من بحر البلطيق في غرب أوروبا إلى المحيط الهادي في شرق آسيا.

و في جنوب آسيا دولة كبيرة تضم ما يقرب من أربعمائة مليون من السكان. و في شرق تلك القارة ووسطها دولة أخرى، يناهز تعداد سكانها الستمائة مليون.

وهناك دولة كبيرة يفصل بين جزأيها الشرقي والغربي أكثر من ألف وخمسمائة كيلومتر من الأراضي الأجنبية.

وهناك دولة تتألف من نحو ثمانين مليوناً من السكان، مبعثرين على آلاف من الجزائر الصغيرة والكبيرة.

فكيف يجوز لأحد منا ، والحالة هذه أن يشك في إمكان توحيد البلاد العربية تحت رأية واحدة، مع أن هذه البلاد يتصل بعضها ببعض اتصالاً جغرافياً مباشراً ، ومع أن سكانها يرتبط بعضهم ببعض ارتباطاً معنوياً قوياً ، بلغة واحدة وبتاريخ طويل .

وفضلاً عن ذلك كله، أود أن أذكّر هؤلاء المتشككين ، بأن البلاد العربية كانت قد اتحدت فعلاً تحت راية واحدة ؛ والمسافات التي تفصل أقسامها المختلفة لم تحل دون اتحادها في العصور التي ما كانت تعرف لا البخار ولا الكهرباء، ولا الطباعة والصحافة والاذاعة.. في العصور التي كانت تنحصر وسائل المواصلة والمناقلة فيها، با الجمال والبغال في البر، والزوارق والمراكب الشراعية في البحر .

فكيف يجوز لأحد منا أن يعتبر تلك المسافات مانعة للاتحاد في عصرنا هذا.. في عصر البواخر والسيارات والطيارات التي تغلبت على المسافات وقصّرت الأرض تقصيراً هائلاً .

لا ننس أننا نعيش الان في عصر صار الخطاب الذي يلقى في الدار البيضاء- مثلاً- يسمع ؛ في لحظة واحدة، في القاهرة وبغداد ؛ فضلاً عن أن الانتقال من أقصى غرب البلاد العربية إلى أقصى شرقها أصبح من الممكن أن يتم في مدة أقصر من المدة التي كان يقتضيها الانتقال من بيروت إلى دمشق، أو من القاهرة إلى أسيوط ، في العصور الغابرة.

فيجدر بنا أن نتساءل : ما أهمية هذه المسافات ، أمام وحدة اللغة ووحدة التاريخ ووحدة المشاعر التي تربط البلاد العربية ، بعضها ببعض؟

وقد عرفت طائفة من ضعاف الإيمان بالقومية العربية، يقولون على الدوام : " ان الوحدة العربية وهم وخيال؟ فلنكن واقعيين، فلا نسير وراء الخيال ".

وأما أنا، فأقول لهؤلاء : ان كثيراً من الأمور التي كانت تعتبر من الخياليات في الماضي، أصبحت من الأمور الواقعية في الحالة الحاضرة . ولا شك في أن كثيراً من خيالات اليوم ستصبح- بدورها- من الحقائق الراهنة في الغد القريب أو البعيد.

ذلك، لأن كل الخيالات ليست من نوع الأضغاث والأحلام . بل ان للخيال كثيراً من الأنواع الخلاقة التي تلعب دوراً هاماً في حياة الأفراد والأمم . لأنهما تحوم حول الأمور الممكنة والمرتقبة، وتساعد كثيرا على تحقق المرغوب والمقصود، وإخراجهما إلى حيزالوجود.

" فيجدر بنا أن لا ننسى: أن الأزهار والأثمار تنبت في مخيلة البساتنة والفلاحين، قبل أن تنمو وتزدهر في الحقول والبساتين... والعمارات تبنى وتقوم في مخيلة المعماريين، والبواخر تتشكل وتتركب في أذهان المهندسين، والانصاب والتماثيل تتكوّن وتقام في مخيلة الفنانين ... قبل أن تشاد وتصنع وتنحت وتنصب – فعلاً - فتخرج إلى عالم الوجود حقيقة.

" ولذلك نستطيع أن نقول: ان الخيال مصدر وباعث للكثير من الامال والأعمال. كما نستطيع أن نؤكد: انه ما من اصلاح تم وتقدم حصل، ولا من نهضة تحققت ورسالة انتشرت.. إلا وكانت قد بدأت على شكل مشروع تخيلته الأذهان، وأمل جاش في الصدور، ومثل أعلى توجهت إليه وتعلقت به النفوس ".

" وأنا لا أتردد في القول: بأن الخيال يكون في بعض الأحوال أشد حيوية من الواقع ، لأن "الواقع الحالي " كثيراً ما يمثل " الماضي البالي "، في حين أن الخيال الحالي قد يكون مبعثا " للمستقبل الحقيقي ".

واعتقد أن فكرة الوحدة العربية- الآن- هي من أحسن الأمثلة على هذا النوع من الخيال .

ومما لا يجب أن يغرب عن بال أحدنا : أن فكرة " الوحدة العربية " قد اجتازت طور " الخيال المحض "، و " الأمنية البعيدة المنال "، ودخلت في طور " التنفيذ والتحقيق ".

فإننا الآن " لسنا في بداية الطريق المؤدي إليها "، بل دخلنا فيه فعلاً ، وقطعنا فيه شوطاً كبيراً، بعد اقتحام الكثير من العوائق والعقبات... وإن كان ما بقي أمامنا الآن، لا يزال طويلاً وشاقاً .
إن استعراضاً سريعاً لما حدث خلال العقود الأربعة الأخيرة من تاريخنا المعاصر، يكفي لاظهار ذلك إلى العيان، بكل وضوح وجلاء :

فقبل أربعين عاماً ، كانت البلاد العربية من أقصى شرقها إلى أقصى غربها ترزح تحت احتلال الدول وسيطرتها، السافرة أو المقنعة بأقنعة الحماية والانتداب. وما كان بقي قطر عربي مصوناً من الاحتلال الأجنبي، سوى الحجاز ونجد مع القسم الشمالي من اليمن فضلاً عن أن هذه الأقطار أيضاً كانت تتخبط في بحر من المشاكل الاقتصادية والسياسية، وتتعرض إلى ألوان من المناورات الاستعمارية والاستغلالية.

والوعي القومي- في ذلك التاريخ- كان ضئيلاً جداً ، والمؤمنون بوحدة الأمة العربية، والمدركون لرسالتها السامية كانوا " فئة قليلة " بكل معنى الكلمة. فضلاً عن أن بعض الزمر من تلك الفئة، كانت أخذت تفقد إيمانها في إمكانيات الأمة، أمام جبروت القوى الاستعمارية، وعنف وسائلها الطاغية.
ولكن... منذ ذلك التاريخ، تغيرت الأحوال تغيراً أساسياً .

لقد تحررت معظم الأقطار العربية من السيطرة الأجنبية ، ولم يبق تحت حكم المستعمرين سوى (الجزائر) من ناحية، والمناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية من الجزيرة العربية، من ناحية أخرى .

وقد جلت الجنود الأجنبية عن أهم الأقطار العربية جلاءً تاماً ، وانحصرت في بعضها الآخر في عدد محدود من المطارات والقواعد العسكرية.

وفضلاً عن ذلك :

قد توحدت دويلات حلب ودمشق وجبل الدروز وجبل العلويين التي كان أنشأها الفرنسيون، فكونت (الجمهورية السورية).

وتوحدت نجد مع الحجاز والعسير، فكونت (المملكة العربية السعودية) .

ثم اتحدت سوريا مع مصر، وكوّنت (الجمهورية العربية المتحدة).

و في الأخير، ارتبطت الجمهورية المذكورة مع المملكة اليمنية باتحاد فدرالي، فكوّنت (اتحاد الدول العربية).

هذا، ومن جهة أخرى- وهذه الجهة أهم من كل ما سبق، وأشد دلالة على المستقبل من كل ما سبق-، فقد عم الوعي القومي جميع البلاد العربية ، واكتسب قوة عظيمة، وصارت فكرة القومية العربية تتغلغل في النفوس، بشدة متزايدة تزايداً سريعاً ، ولا نغالي إذا قلنا أنها أخذت شكل تيار جارف، تضطر الحكومات إلى مجاراته ، اضطراراً يشتد يوماً فيوماً .

وكل هذه التطورات الهامة، قد حدثت في الوقت الذي كانت أصوات التواكل والقنوط والرجعية لا تزال تردد القول : محال.. محال!

إن ما تم تحقيقه من مستلزمات الوحدة العربية منذ ذلك التاريخ ، ولا سيما خلال السنوات الخمس الأخيرة، لا يترك مجالاً لاعتبار القضية (خيالية)، بعد الآن .

إن التطورات التي استعرضتها آنفاً ، يجب أن تقوي إيماننا بإمكان تحقيق ما تبقى من مستلزمات الوحدة المذكورة، ويجب أن تدفعنا إلى العمل في هذا السبيل بعزم أقوى، واندفاع أشد .

وقبل أن أختم هذا البحث، أرى من الضروري أن أصرح في هذا المقام، بأني عندما استعرضت وعرضت مكاسب السنين المذكورة- من وجهة فكرة القومية العربية- لم أرد أن أتجاهل أو أتناسى ما حل بنا من خسائر ومصائب في هذا المضمار.

إني أعرف أن التطورات التي حدثت خلال العقود الأخيرة من تاريخنا المعاصر لم تأت في صالح قضيتنا على الدوام، واعترف بأننا تعرضنا خلال هذه المدة إلى بعض الخسائر والمصائب أيضاً ... ومع ذلك فإني اعتقد أن مكاسب القومية العربية- خلال السنين المذكورة- فاقت خسائرها تفوقاً كبيراً ، فضلاً عن أنها زودتنا بالقوى المادية والمعنوية لتلافي تلك الخسائر، والتغلب على تلك المصائب.

كما أعرف أن إحدى تلك المصائب كانت أشد هولاً وأعظم خطراً ، من كل مصائبنا الماضية وهي لا تزال تدمي قلوبنا، وتعرض مستقبلنا إلى أشد الأخطار.

ومع هذا، ألاحظ - من ناحية أخرى- أن هذه المصيبة الأخيرة فتحت عيون الكثيرين من الغافلين، وصارت بمثابة (ناقوس الخطر) الذي يدق بشدة وبدون انقطاع، فلا يترك مجالاً للنوم والغفلة أبداً .

انها أظهرت وجسدت أضرار الانقسام السياسي الذي مني به العالم العربي، وجعلتها تلمس لمس اليدين، وتصدم أنظار كل ذي عينين.

ولا شك في أن ظهور هذه الأضرار إلى العيان، بهذه الصورة المجسمة، من شأنه أن يقوي الوعي القومي، وأن يرسّخ الايمان بوحدة الأمة العربية، ويدفع جميع أبناء العروبة إلى العمل في سبيل تحقيق الوحدة الشاملة بقوة لا تقهر، وبإيمان لا يتزعزع .

وإني لقوي الأمل، بل ولشديد الإيمان، بأن هذه المصيبة ستكون من أقوى العوامل التي ستوحد مشاعرنا وتقوي عزائمنا، وستجعلنا نسير نحو الوحدة ، بكل ما لدينا من قوى مادية ومعنوية، ومن عزم وإيمان .
وإن كنت لا أنكر أن الطريق الباقي أمامنا، لا يزال طويلاً ، ومحفوفاً بشتى المهاوي والمخاطر. ولكنني آمل أملاً قوياً ، بل اعتقد اعتقاداً جازماً ، بأن روح العروبة الحقة ، ستقتحم كل العراقيل، وستنتصر في آخر الأمر، انتصاراً حاسما، في كل الميادين .

وبمناسبة الحديث عن " الأمل "، أود أن أعيد إلى الأذهان اسطورة " باندور " Pandor التي كنت جعلتها موضوعاً لاحدى محاضراتي، قبل نحو ربع قرن من الزمان .

اسطورة " باندور " هذه من أمتع الأساطير اليونانية، وأشدّها تضمناً لمعنى فلسفي خلاق .

إنها يمكن أن تلخص كما يلي :

كانت باندور إلهة جمة الجمال، تكونت من عطايا جميع الآلهات. فإن كل إلهة من الآلهات الموجودة في ذلك الحين أعطتها شيئاً من خصائصها. ولهذا السبب سميت هذه الإلهة الجديدة باسم " باندور " بمعنى " عطية الكل ".

عندما غضب " جوبيتر " على " هركول "، فأراد أن ينتقم منه ، فكر في إغرائه بواسطة باندور. فسلمها علبة سحرية ، وطلب إليها أن توصلها إليه ، دون أن تفتحها وتطلع على ما فيها.

وحملت باندور هذه العلبة غيرأنها لم تستطع أن تتغلب على حب التشوّف والاستطلاع في نفسها، ففتحت العلبة في طريقها. وعند ذلك أخذ يخرج ويتدفق منها جيش عرمرم من المساوىء والشرور، وينتشر في الأرض بسرعة عاصفة مع أزيز هائل.

اندهشت باندور من كل ذلك، وأخذت تبذل كل ما لديها من قوة لاعادة غطاء العلبة بسرعة.. غيرأنه.. إلى أن تتمكن من ذلك، كان قد خرج من العلبة جميع الشرور، ولم يبق فيها إلا شيء واحد.

وكان الشيء الذي بقي في العلبة- مقابل جميع تلك المساوىء والشرور.. هو " الأمل ".

بعد أن نقلت هذه الأسطورة إلى سامعّي ، قلت في ذلك التاريخ ما يلى :

" حالة العالم العربي الآن- أيها السادة، تشبه الحالة التي حدثت عند انفتاح علبة باندور... لقد انتشرت المصائب والشرور في العالم العربي فلم يبق بين أيدي أبنائه شيء غير" الأمل "..

" فيجب علينا أن لا ننسى أن الأمل ؛ هو من أثمن عوامل العمل. ولذلك ، يجب علينا أن نتمسك بأهدابه تمسكاً شديداً ، فلا نترك مجالاً إلى تسلل القنوط إلى القلوب.

" فليكن قلب كل واحد منا شبيهاً بعلبة باندور: يحفظ الأمل... ولا يكتفي بحفظه فحسب، بل يسعى إلى تغذيته وتقويته، إلى أن يتحول إلى إيمان لا يتزعزع، يدفعنا إلى العمل المتواصل، بروح التضحية والاخلاص "...

هذا ما كنت قلته، قبل نحو ربع قرن من الزمان، لجمع من الشبان الناهضين.

غير أني اليوم، عندما أعدت قراءة هذه الأسطر، شعرت بسرور حاد يغمر جوانحي . لأني قد لاحظت بأنه لم يعد يحق لي أن أقول . " لم يبق شيء غير الأمل ". لأنه، لم ينقطع " الأمل " من التأثير في نفوس العاملين المخلصين تأثيره السحري الباهر. فإن جهود هؤلاء قضت على الكثير من المساوىء والشرور، وأكسبت البلاد العربية الكثير من المزايا والمحاسن ... ولذلك جعلت " الأمل " الآنف الذكر جديراً بالتحول إلى " الإيمان ".

فالإيمان بوحدة الأمة العربية وبمستقبلها الباهر، يجب أن يكون رائد كل منا ، بعد الان.

***